الَأوْلَى في القرآن الكريم - دراسة في التعبير القرآني

أ. د. أحمد علي نعمة الزبيدي

الجامعة العراقية/ كلية الآداب/ قسم علوم القرآن

أ. د. حيدر علي نعمة الزبيدي

الجامعة العراقية/ كلية الآداب/ قسم علوم القرآن

The Concept of "Al-Awla" (The Most Entitled / Superior) in the Holy Quran: A Study in Quranic Expression

Prof. Dr. Ahmed Ali Neamah Al-Zubaidi

Prof. Dr. Haider Ali Neamah Al-Zubaidi

Al-Iraqia University / College of Arts / Department of Quranic Sciences

https://doi.org/10.64704/dawat.2026124803

ملخص البحث

تطرَّق البحث لبيان واحد من أهم الأساليب القرآنية المعجزة والفذَّة في عرض أحكامه وبيان أفكاره المُتعلِّقة بالموضوعات كافة؛ عقدية كانت أو عبادية، نظرية أو عملية، فردية أو جماعية، دنيوية أو أُخروية؛ وذلك أنه حين يعمد إلى تناول موضوع مُعيَّن على نحوٍ من العناية الخاصة والتأكيد البالغ؛ فإنه يشرع في عرض أعلى ما جاء فيه وصفًا وأَوْلَى حكمًا؛ فيدخل ما يكون بصدد تناوله دخولًا أوليًا، وفي ذلك من التنويه بخطورة هذا الموضوع وضرورة التزام بُنُوده اتباعًا أو اجتنابًا ما لا يخفى من فُنُون الخطاب اللُّغويِّ وطرائق الأساليب العربية المبينة؛ ومن ثَمَّ اقتضتْ طبيعة البحث أن يكون مُقسَّمًا على سبعة مطالب رئيسة، تناولتْ آيات الأولى في الموضوعات الآتية على التوالي: التَّفضُّل والإنعام، التوقير والإكرام، بيان حال المؤمنين، تصحيح المفاهيم المغلوطة، التَّعجيز والتَّحدي، الزجر والوعيد، ثُمَّ الختام بدراسة آيات الأَوْلَى في بيان عاقبة المجرمين؛ لتأتي بعد ذلك خاتمة البحث مُتضمِّنة أهمَّ النتائج التي توصَّل إليها، متلوَّة بثبت لأهمِّ المظانِّ التي أفدنا منها في رفده بالمادة العلمية اللازمة.

الكلمات المفتاحية: الأحكام – الدَّلالة – التَّعبير القرآني – الفحوى – الأَوْلَى

Abstract

The research dealt to show one of the most important miraculous and unique Qur<anic methods in presenting its rulings and expressing its ideas related to all topics. doctrinal or devotional, theoretical or practical, individual or collective, worldly or eschatological; This is because when it intends to deal with a particular subject in a manner of special care and great emphasis; It proceeds to display the highest description and the first in importance ruling; so enters what it is about to deal with initially, and in that it mentions the seriousness of this topic and the necessity of adhering to its provisions, following or avoiding what is not hidden from the arts of linguistic discourses and the methods of the plain Arabic methods; Hence, the nature of the research necessitated that it be divided into seven main sub chapters, the verses of (Alawla) The Worthier which dealt with the following topics in a row: grace and bounty, reverence and honor, an explanation of the condition of the believers, intellectual elevation and moral refinement, correcting misconceptions, impediment and challenge, reprimand and intimidation, and then concluding with explaining the outcome of the criminals. Then comes the conclusion of the research, including the most important results it reached, followed by a list of the most important resources we benefited from in providing it with the necessary scientific materials.

مقدِّمة

الحمد لله الَّذي جعل العربية على أشرف لسانٍ، وأنزل كتابه المحكم في أساليبها الحسان، والصَّلاة والسَّلام على أفضل العُرْب لهجة، وأصدقهم حُجَّة، وأقوم الدُّعاة إلى الحقِّ محجَّةً، وعلى آله الأمجاد، وصحبه الَّذين فتحوا البلاد، ونشروا لُغة التنزيل في الأغوار والأنجاد، وحبَّبوها إلى الأعجمين حتَّى ٱستقامت ألسنتُهُم على النُّطق بالضَّاد، وبعدُ؛

فكثيرة هي الأساليب القرآنية المعجزة والفذَّة في عرض الأحكام الهادية وبيان الأفكار المُتعلِّقة بالموضوعات كافة؛ عقدية كانت أو عبادية، نظرية أو عملية، فردية أو جماعية، دنيوية أو أُخروية، ومن أبرز تلك الأساليب أنه حين يعمد إلى تناول موضوع مُعيَّن على نحوٍ من العناية الخاصة والتأكيد البالغ؛ فإنه يشرع في عرض أعلى ما جاء فيه وصفًا وأَوْلَى حكمًا؛ فيدخل ما يكون بصدد تناوله دخولًا أوليًا، وفي ذلك من التنويه بخطورة هذا الموضوع وضرورة ٱلتزام بُنُوده ٱتباعًا أو ٱجتنابًا ما لا يخفى من فُنُون الخطاب اللُّغويِّ وطرائق الأساليب العربية المبينة! وفي الصفحات اللاحقة عرض وبيان لجانب من تلك الأساليب مُقسَّم على سبعة مطالب رئيسة، تناولتْ آيات الأولى في موضوعات: التَّفضُّل والإنعام، والتوقير والإكرام، وبيان حال المؤمنين، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، والتَّعجيز والتَّحدي، والزجر والوعيد، ثُمَّ الانتهاء بدراسة آيات الأَوْلَى في بيان عاقبة المجرمين؛ لتأتي بعد ذلك خاتمة البحث مُتضمِّنة أهمَّ النتائج التي توصَّل إليها، متلوَّة بثبت لأهمِّ المظانِّ التي أفدنا منها في رفده بالمادة العلمية اللازمة؛ فنقول وبالله التوفيق:

المطلب الأول: آيات الأولى في التفضل والإنعام

قال ﷻ: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [إبراهيم: ٣٤]، و(الإحصاء): ضبط العدد، منقولٌ من الحصى؛ وهو صغار الحجارة؛ لأنَّهم كانوا يَعُدُّون الأعداد الكثيرة بالحصى كما نَعُدُّهَا نحن اليوم بالأصابع ونحوها؛ تجنُّبًا للغلط، ثُمَّ ٱستعمل لمطلق العَدِّ! فأصْلُ (الإحصاء) أنَّ الحاسب كان إذا بلغ في حسابه عقدًا

معينًا من عقود الأعداد؛ وَضَعَ حَصَاة ليُحْفَظَهُ بها، ثُمَّ ٱسْتَأنَفَ العدد؛ ففيه إيذَانٌ بعدم بُلُوغِ مرتبة مُعْتَدٍّ بِهَا من مراتب تلك الأعداد، فضلًا عن بُلُوغِ غايتها؛ وعليه يكون معنى قوله ﷻ: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لَا تُحْصُوهَا): لا توجد لِنِعَمِ الله غايةٌ فتُوضَعُ لها حَصَاةٌ؛ فأنتُم لا تُطيقُونَ حَصْرَهَا وعَدَّهَا أو تحديدها وبُلُوغ آخرها ولو إجمالًا؛ لعظمها وكثرتها وعَدَمِ نِهَايَتِهَا؛ فما آتانا الله من النِّعم كثيرٌ كثيرٌ، منهُ ما هو معلومٌ، وكثيرٌ منه لا نُحيط بعلمه أو لا نتذكَّره عند إرادة تعداد النِّعم[1]!

وفي ذلك إخبارٌ عن عجز العباد عن تعداد النِّعم؛ فضلًا عن القيام بشكرها؛ فحقُّ الله أثقلُ من أنْ يقوم به العباد، ونِعَمُ الله أكثرُ من أن يُحصيها العباد؛ فهم محدودون بين حدَّين من الزَّمان: بدءٍ ونهايةٍ، وبين حدودٍ من العلم تابعةٍ لحدود الزمان والمكان، ونعم الله مطلقةٌ - فوق كثرتها - فلا يحيط بها إدراكُ إنسانٍ مهما ترامى وٱتَّسع، ولا يعلم حدَّها على الحقيقة، ولا يقدر على إحصائها غيرُ المنعم بها وحده؛ ويُجزِئُ العبادَ المنعَم عليهم من ذلك أن يُصبحوا تائبين، ويُمسوا تائبين[2]!

فمعنى: (وَإِنْ تَعُدُّوا): إنْ تُحاولوا العدَّ وتأخذوا فيه؛ وذلك مثلُ النِّعم المعتاد بها الَّتي ينسى النَّاس أنها من النِّعم؛ كنعمة التَّنفُّس، ونعمة الحواسِّ والقُوى، ونعمة هضم الطَّعام وريِّ الشَّراب، ونعمة الدَّورة الدَّموية، ونعمة الصِّحَّة، ومدد الأرزاق المتواصلة والعطايا المتواترة... فضلًا عن نعمة الهداية للإيمان؛ ففي التَّعبير القرآنيِّ الحكيم إلفات إلى هذه النِّعم الكثيرة الَّتي بين أيدينا، والَّتي نجدها - لو ٱلتفتنا إليها - في كلِّ شيء يُحيط بنا: في الهواء الَّذي نتنفَّسه، وفي الضوء الَّذي تكتحل به أعيننا، وفي اللُّقمة نجدها على جوعٍ، وفي شربة الماء نأخذها على ظمأٍ، وفي نسمةٍ عليلةٍ نستروحها بعد لفحة الهجير، وفي إغفاءةٍ بعد سهرٍ، وفي صِحَّةٍ بعد مرضٍ، وفي نجاحٍ بعد إخفاقٍ، وفي طُمأنينة بعد قلقٍ، وفي أمنٍ بعد خوفٍ... وهكذا، ومن لم ير نعمة الله عليه إلَّا في مطعمه ومشربه؛ فقد قلَّ علمه، وحضر عذابه[3]!

فنحن في نعمٍ دائمةٍ لا تنقطع

أبدًا، يجدها الغنيُّ والفقير، والقويُّ والضَّعيف، والمريض والسَّليم، وهي من الكثرة بحيث لا نلتفتُ إلَّا إلى ما نفقده منها، ولا نشعر إلَّا بما بعد عنا من وُجُوهها؛ ولهذا جاء التَّعبير القرآنيُّ عن هذه النِّعم بلفظ المفرد (نِعْمَتَ الله)؛ بمعنى أنَّ النِّعمة الواحدة من نعم الله ﷻ هي نعمٌ كثيرةٌ لا تُحصى، وأنَّ أيًا منها – وإنْ بدا صغيرًا – لا يستطيع الإنسانُ أن يحفظه، ولا أن يأتي على جميعه بالعدِّ والإحاطة، ولا أن يُؤدِّي لله حقَّ شكره؛ فكيف ونِعَمُ الله – لا نعمته – تُلبسنا ظاهرًا وباطنًا[٤]؟!

وقال ﷻ في الحثِّ على المسابقة إلى ما أعدَّ لعباده المؤمنين: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ) [الحديد: ٢١]، هذه هي الجنة الَّتي أعدها الله للمؤمنين بالله ورسله الذين يسارعون إلى طلب غفران الله ﷻ، فإذا كان عرض الجنة هو السَّمَوات والأرض، فما طولها إذن؟! وكم يكون بعدها؟! والعرض كما نعرف هو أقلُّ البُعدين في قياس المسافة!

إذن يجب أن نفهم أنَّ هنالك عوالم أخرى غير السماء والأرض؛ ولكن أعيننا لا تبصر إلَّا ما أراده الحق ﷻ لنا من السماء والأرض؛ ولذلك فعندما نسمع قول الحق ﷻ: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) [البقرة: ٢٥٥]؛ فلنا أن نتخيل أيَّ عظمة هي عظمة كرسي ذي الجلال والإكرام!

ومعنى: (وسع الشيء): دخل في وُسعه واحتماله، وحينما يقول يبين لنا ﷻ أنَّ الكرسي قد وسع السَّمَوات والأرض؛ فمعنى ذلك أنه أعظم منهما جُرمًا أو معنىً، وأنهما قد دخلا في وُسعه! وإذا كان الكُرْسيُّ لا يثقل عليه حفظ السَّمَوات والأرض؛ فما بالنا بصاحب الكرسي؟! وفي ذلك يقول أبو ذر الغفاري **(رضي الله عنه)**: سألت النبي ﷺ عن الكرسي؛ فقال: ((يا أبا ذر، ما السَّمَوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلَّا كحلقة ملقاة بأرضٍ فلاةٍ، وإنَّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة))[٥]!

وإذا كانت هذه الأشياء الضخمة من صنع الله ﷻ، وهو فوقها؛ فإنه عندما يصف نفسه بأنه «علي» و«عظيم»؛ فذلك

أمر طبيعي! إنَّ الحق ﷻ يعطينا تذييلًا منطقيًا يقتضيه ما تقدَّمت به الآية الجليلة: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة: ٢٥٥]، وكلمة «عليٍّ» صيغة مبالغة في العُلُوِّ، و«العليُّ»: هو الَّذي لا يوجد ما هو أعلى منه؛ فكل شيء دونه! وكلمة «الكرسي» تعني: السلطان والقهر والقدرة والملكية، وكلها مأخوذة من صفات الحق ﷻ[٦].

ومعنى أنَّ عرض الجنة المعدة للمؤمنين بالله ورسله مِثْلُ عرض السموات والأرض أنه لو جُعلت السموات والأرضون طبقًا طبقًا؛ بحيث يكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحًا مؤلفًا من أجزاء لا تتجزأ، ثم مُدَّتْ كُلُّ واحدةٍ منها حذو الأخرى ووُصِلَ بعضها ببعض طبقًا واحدًا؛ لكان ذلك مجتمعًا مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله ﷻ! أو أنَّ الجنة التي يكون عرضها مثلَ عرض السموات والأرض إنما تكون للرجل الواحد؛ لأنَّ الإنسان إنما يرغب فيما يصير ملكًا؛ فلا بد أن تكون الجنة المملوكة لكل واحد مقدارها هذا[٧]!

أو المعنى أنَّ الجنة لو عُرضت بالسموات والأرض على سبيل البيع؛ لكانتا ثمنًا للجنة! تقول إذا بعت الشيء بالشيء الآخر: (عرضته عليه)، و(عارضته به)؛ فصار العرض يوضع موضع المساواة بين الشيئين في القدر، وكذا أيضًا معنى (القيمة)؛ لأنها مأخوذة من مقاومة الشيء بالشيء؛ حتى يكون كلُّ واحد منهما مثلًا للآخر[٨]!

أو هو من (العرض) المقابل لـ(الطُّول)، والمقصود من ذكر العرض: المبالغة في وصف سعة الجنة؛ لأنه لا شيء عندنا أعرض منهما! وإنَّما خُصَّ (العَرْضُ) بالذِّكر؛ ليكون أبلغ في الدلالة على عظمها واتساع طولها وترامي أطرافها؛ إذْ كل ما له عَرْضٌ وطُولٌ؛ فعَرْضُهُ أقلُّ من طوله، فإذا وُصِفَ عَرْضُهُ بالبسطة؛ عُرف أنَّ طُوله أبسطُ وأمدُّ، وإذا كان هذا عرضها؛ فليذهب العقلُ البشريُّ كُلَّ مذهبٍ في تصوُّر طولها بعدما عُلِمَ أنَّ (العرض) أقلُّ البُعدين وأقصر الامتدادين في قياس المسافة؛ ومِنْ ثم خُصَّ الأدنى بالذِّكر، وكان الاقتصارُ عليه أبلغ وآكدُ من ذكر الطول معه؛ إشارةً إلى أنه لما كان (العَرْضُ) ذلك؛ فالظاهر أنَّ (الطُّولَ)

يكون أعظم! ونظيره قوله ﷻ: (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ) [الرحمن: ٥٤]، وإنما ذكر البطائن؛ لأنَّ المعلوم أنها تكون أقلَّ حالًا من الظِّهَارة، فإذا كانت البِطَانةُ هكذا؛ فكيف الظِّهَارةُ؟! فكذا هاهُنا، إذا كان العَرْضُ هكذا؛ فكيف الطُّولُ؟! وقوله ﷻ: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) [هود: ١٠٧ – ١٠٨]؛ فإنَّ أطول الأشياء بقاءً عندنا هو السموات والأرض؛ فخُوطبنا على وَفْقِ ما عرفناه ووقع في نفوسنا وأفكارنا، وأقصى ما يمكن أن نتصوره في ذلك، وأكبرُ ما قد يقع في نفوسنا وأفكارنا ويرتسم في مُخَيِّلتنا من تلك السعة غير المحدودة مقدارُ السموات والأرض، ونُودينا بما فيه تقريبٌ لأفهامنا؛ وإلَّا فالجنة أعظم من ذلك مرارًا، كيف لا، والمؤمن الواحد يُعطى قَدْرَ الدنيا وما فيها عشر مرات؟!

وقيلَ: ليس المراد بـ(العرض) هاهُنا ما هو خلاف (الطُّولِ)؛ بل هو عبارة مجازية عن مطلق السعة والبسطة؛ كما تقول العرب: (بلادٌ عريضةٌ)؛ أي: واسعةٌ، مترامية، ممتدَّةٌ؛ فمن عادتهم التَّعبيرُ عن الشيء بعَرْضِهِ دون طُوله؛ قال شاعرهم:

كأنَّ بِلَادَ الله وَهْيَ عَرِيضَةٌ
عَلَى الخَائِفِ المطلُوبِ كفَّةُ حَابِلِ[٩]

ويُقالُ: (هذه دعوى عريضةٌ)؛ أي: واسعةٌ، عظيمةٌ، وكقوله ﷻ: (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) [فصلت: ٥١]! والأصل فيه أنَّ ما اتسع عَرْضُهُ؛ لم يَضِقْ، وما ضاق عَرْضُهُ؛ دقَّ؛ فجُعِلَ (العَرْضُ) كنايةً عن السعة؛ بأنْ شُبِّهَتْ تلك الجنةُ الممتدةُ ووُصِفَتْ بأوسع ما علمه الناس من خلق ربهم وأبسطه، وذلك غايةٌ في الترغيب[١٠]!

((وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد، ويسابق إليه كل من يشاء، وعربونه: الإيمان بالله ورسله! إنَّ مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة الَّتي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة، وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلَّا بقَدَرِ ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون، وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد! والفارقُ هائلٌ هائلٌ لا تبلغ مقاييسُ الأرض كلُّها أن تُحدِّده، ولا حتى أن تشير

إليه!))[11].

وقال جلَّ جلاله في وصف بعض نعيم أهل الجنة: (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ) [الرحمن: ٥٤]، (البطانة) مشتقة من (البطن)؛ ضد (الظهر) من كل شيء، وهي ما بطن من الثوب، وكان من شأن الناس إخفاؤه، و(الظِّهارة): ما ظهر منه، وكان من شأن الناس إبداؤه. ويقال للجهة السفلى: (بطن)، وللجهة العليا (ظهر)، فيقال: (بطنت ثوبي بآخر)؛ إذا جعلته تحت ثوبٍ آخر؛ فـ(بطانة الثوب): داخله وما لا يبدو منه، وضدُّ البطانة (الظِّهارة)، ومن كلامهم: (أفرشني فلانٌ ظهر أمره وبطنه)؛ أي علانيته وسِرَّه، شُبِّهَتِ العلانية بظهر الفراش، والسر ببطنه، وهما (الظِّهارة والبطانة)؛ ولذلك أتبع هذا التشبيه باستعارة فعل: (أفرشني)! فـ(البطانة): هي الثوب الَّذي يُجعَلُ على الفراش، و(الظِّهارة): الثوب الَّذي يُجعَلُ فوق البطانة؛ ليظهر لرؤية الداخل للبيت؛ فتكون الظِّهارة أحْسَنَ من البِطَانة في الفراش الواحد، والغرضُ من إبدائها الزِّينةُ، والعرب كانوا يجعلون الفراش حشية؛ أي: شيئًا محشوًا بصوف أو قطن أو ليفٍ؛ ليكون أوثر للجَنْب، فإذا وضعوا على الحشية ثوبًا، أو خاطوها بثوبٍ؛ فهو (البِطَانة)، وإذا غطوا ذلك بثوبٍ أحْسَنَ منهُ؛ فهو (الظِّهارة)[12].

فالمعنى هُنا: أنَّ بطائن فرش الجنة من إستبرقٍ، وهو وصفٌ دالٌّ على غاية جودتها ونهاية شرفها؛ فلا تسألْ عن ظهائرها؛ فإنها أجودُ من ذلك وأشرفُ، ولا ثوب في الثياب المعروفة عند الناس في الدُّنيا أجودُ ولا أشرفُ ولا أنفسُ من الإستبرق، وإنَّما خصَّ البطائن بالذِّكر؛ كنايةً عن نفاسة وصف ظهائر تلك الفرش! فهذه هي البطائن الَّتي تكون في أحسن أحوالها أقلَّ حالًا من الظواهر، فكيف بالظواهر؟! نبهﷺ على شرف الظِّهارة لتلك الفرش المعدَّة بشرف البطانة، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ لأنَّ بطائنها للأرض، وهو هنا مجاز عن الأسفل، وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة، وهذا في القرآن كثير، وهو مما قال اللهﷻ: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) [السجدة: ١٧]! وإنما وصف لنا بطائنها؛ لتهتدي إليها قلوبنا، وتقع في مخيلتنا، فأما الظواهر

وحقيقة تلك الفرش؛ فلا يعلمها إلا الله ﷻ، وذلك غايةٌ في التحبيب والترغيب[١٣].

وقال ﷻ عن المتقين: (لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الزمر: ٣٥]، ميزانُ العدل الرَّبَّانيِّ المطلق قاضٍ بأنْ تُحسَبَ الحسناتُ وتُحسَبَ السَّيِّئاتُ إزاءها، ثم يكون الجزاء السَّويُّ على هذا الأساس، ومبدأُ الفضل هو الَّذي يتجلَّى به الله ﷻ على عباده المتقين؛ فيُكفِّر عنهم أسوأ أعمالهم؛ فلا يبقى لها حسابٌ في ميزانهم، ويجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال؛ فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح كفَّة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان! فإذا كان الله قد غفر لهم – بلُطفه وفضله وواسع عفوه وصفحه، ثم بسبب إخلاصهم في عزائمهم – أسوأ أعمالهم ومحاه من صحائفهم؛ غفر لهم ما دونه من الأسهل والأصغر ومحاه بطريقٍ أولى؛ لأنَّ الحسنات يُذهبن السيئات؛ فسيق الأُسلُوب على هذا النَّسق البيانيِّ البديع؛ للمُبالغة في الحفاوة والإكرام، وتأكيد حُصُول التَّكفير والعفو والإرضاء وحتميته[١٤]!

فليس معنى أنَّ الله ﷻ يُكفِّر عن المتقين أسوأ ما عملوا أنَّ لهم من الأعمال سيئًا وأسوأ، وأنَّ الله يكفر الأسوأ فقط، ويدعُ السَّيِّئ في موازينهم على حاله من دُون تكفيرٍ؛ بل المعنى أنَّ هؤلاء المتقين لشِدَّة تقواهم ووَرَعِهم ووَجَلِهم من ربهم وخشيتهم له إذا فرط منهم ذنبٌ صغيرٌ؛ فهو عندهم أسوأُ الَّذي عملوا؛ لاستعظامهم المعصية في جنب ربهم ﷻ؛ فكلُّ ذنبٍ صغيرٍ يصدر عنهم فهو في نظرهم كبيرٌ؛ بلْ هو في ميزانهم وتقديرهم أسوأُ أعمالهم؛ فليس لهم في الواقع مصفاة تَفرِزُ من أعمالهم الجيد من الأجود، ولا الجيد من السَّيِّئ، ولا السَّيِّئ من الأسوأ!

فالمقامُ هُنا مقامُ مدحٍ وثناءٍ وكنايةٍ عن تكفير جميع سيئاتهم بطريقٍ برهانيٍّ، لا مقام تعدادٍ وتصنيفٍ وتقييمٍ للسَّيِّئات والذُّنُوب من حيث العظمة والصغر؛ ومِنْ ثم فإنَّ (أَسْوَأَ) هُنا بمعنى: (السَّيِّئ)؛ صغيرًا كان أو كبيرًا! فوُرُودُ اللَّفظ هُنا على ما هو الشائع في أفعل التفضيل، وليس المراد أنَّ لهم عملًا سيِّئًا وآخر أسوأ، وأنَّ المكفَّر هو الأسوأُ فقط

دُون السَّيِّئ؛ فإنهم المتقون الَّذين وإنْ كانتْ لهم سيِّئاتٌ؛ لا تكون من الكبائر العظيمة، ولا يُناسب التَّعرض لها في مقام مدحهم كما مرَّ بيانه[١٥]!

خلاصةُ ما تقدَّم أنه ﷺ خصَّ الأسوأ في معرض التَّكفير والمحو؛ للمبالغة؛ فإنَّه إذا ما تم تكفيره؛ كان غيرُهُ أولى بذلك، أو للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذُّنُوب من شِدَّة توقيرهم لربِّهم الآمر النَّاهي يحسبون أنهم مُقصِّرون مُذنبون، وأنَّ ما يفرط منهم من الصَّغائر أسوأ ذنوبهم، فما هو حالهم إزاء الكبائر فيما لو صدرتْ عنهم[١٦]؟!

المطلب الثاني: آيات الأولى في التوقير والإكرام

قال ﷺ في الوصاة بالوالدين: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) [الإسراء: ٢٣]، إذا بلغ الوالدان أو أحدهما سن الكبر، أو صارا في حال ضعف وعجز؛ فعلى الولد تجاههما جملة واجبات، منها: ألَّا يقول لهما (أُفٍّ)؛ وهي كلمة تضجُّر ناتجةٌ عَنِ انفعالٍ طبيعيٍّ، فلا تُسمعهما إذا كبرا وأسَنَّا أدنى مراتب ذلك الانفعال والقول السيئ الموغر للصدر؛ بتوجيه كلمة إيذاء مكونة من حرفين، تخرج من في صاحبها منفلتةً على نحوٍ قسريٍّ لاشعوريٍّ ولا اختيار له فيه في الغالب، تدلُّ على التَّضجُّر والتَّبرُّم والتَّكرُّه والاستثقال والمضايقة؛ فتلك الكلمة الصغيرة الموحشة الَّتي تعد أدنى مراتب الأذى بالقول السيئ، والَّتي تخرج من في صاحبها منفلتةً على نحوٍ قسريٍّ لاشعوريٍّ ولا اختيار له فيه في الغالب، والَّتي قد يحسبها صاحبها هينةً في ميزان التعامل وهي عند الله عظيمة في ميزان العمل، لو انفلتت من في صاحبها؛ ستكون ذاتَ إساءةٍ بالغةٍ للوالدين، وستنغص عليهما؛ حتَّى لو بدر عنهما أو صدر منهما ما يُضايِقُ عند كبرهما؛ فالكبر ملازم للضعف والعجز والحاجة إلى المعين والناصر الَّذي يتغاضى عن العيب والأذى؛ بل الواجب على الابن أن يتلقَّى أوامر والديه برحابة صدرٍ، وطلاقة وجهٍ، ولين جانبٍ، وخفض جناحٍ وكلامٍ، وتحسين قولٍ، وأنْ لا يتعرض لهما بأيِّ نوعٍ من أنواع الإيذاء والإيحاش والغلظة والقبح والمكروه، والمقصود من

هذا الكلام الكريم: المبالغة في تعظيم الوالدين وتوقيرهما!

ولو وُجِدَتْ فيما يتخاطب به البشر طُرًّا كلمةٌ يعرف أهل الدُّنيا على تباين ألسنتهم واختلاف لُغاتهم أنها تدُلُّ على أقلَّ من هذا المعنى؛ لما أغفل ذكرها المولى ﷻ؛ حفظًا للحق العظيم الَّذي انماز به الوالدان عن سائر البشر، وصيانةً لهما من أنْ يطُولهما أو أن يتقحَّم حرمهما ما يجرح لهما شُعُورًا، أو يكدر خاطرًا، أو يكفر نعمةً أنعماها على ولدٍ، أو يَرُدَّ وصيةً بهما مُلْزِمَةً صادرةً من مَوْلَاهُما الحكيمِ الخبيرِ ﷻ! وقد ورد في الحديث المرويِّ عن عليٍّ عليه السلام أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((لو علم الله شيئًا من العقوق أردأ [أعظم] من (أُفٍّ)؛ لذكره [لحرَّمَهُ]، فليعمل البارُّ ما شاء أن يعمل؛ فلن يدخل النار، وليعمل العاقُّ ما شاء أن يعمل؛ فلن يدخل الجنة))[17]! وإنما صارت قولةُ (أُفٍّ) للوالدين أردأ شيء وأعظم جُرمٍ؛ لأنَّ قائلها قد رفضهما بالتفوه بها في وجهيهما رَفْضَ كفر النعمة، وجحد التربية، وردِّ الوصية الَّتي أوصاه بها وألزمه التنزيلُ الحكيمُ.

فمنعُ التأفُّفِ – الَّذي هو أدنى مراتب الأذى بالقول السيئ – يدلُّ على المنع من سائر أنواع الأذية قولًا وفعلًا وإشارةً دلالةً لفظيةً هي من الظهور والجلاء بحيث لا تخفى ولا تلتبس على عاقل، ولا ينكرها إلَّا مُتَأَبٍّ أو مكابر؛ فما فوقه ممنوعٌ من باب أحرى؛ إذْ جعل الباري جلَّ جلاله هذه اللفظة مثلًا لجميع ما يُمكنُ أنْ يُقابَلُ به الوالدان مما يَكْرَهُونَ أو يُكْرَهُونَ عليه؛ فلم تَرِدْ هذه اللَّفظة للدَّلَالَةِ على حقيقة وضعها اللُّغويِّ والمعنى الكامِنِ في نفسها خاصَّةً؛ وإنَّما هي كلمةٌ منقولةٌ للإعراب عن كُلِّ شيءٍ مرفوضٍ ومُسْتَهْجَنٍ[18]، ومثالٌ لِمَا كان أعظمَ منها وأقلَّ من ضُرُوبِ الأذى؛ قولًا كانتْ أو فعلًا أو إشارةً! وبِذَا أشار مفهومُ الخطاب هُنا إلى أنَّ حكم المسكوت عنه أَشَدُّ وأغلظ من حكم المذكور[19]! ومعنى الآية: لا تتعرضْ لهما بأيِّ نوعٍ من أنواع الإيذاء والإيحاش والغلظة والقبح والمكروه، وأقلُّ هذا المكروه: ما يظهره المتأفف ويُصدره بتنفسه المتردد من الضجر والسآمة والملل، والمقصود من هذا الكلام الكريم: المبالغة في تعظيم الوالدين وتوقيرهما[20].

والتَّعبير بقوله ﷻ: (عِنْدَكَ) يستجيش وجدان البر والرحمة في قلب الابنِ باستحضار ذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان والإيثار والتضحية، ويُوجِّهُ ٱهتمامه بالتذكير والحثِّ لينعطف ملتفتًا إلى الوراء والحياة المدبرة (الوالدين) وتوجيهه بالفطرة والهِمَّةِ إلى الأمام والحياة المقبلة (الأبناء)، ويُشيرُ إلى أنَّ الوالدين قد آلا إليه في هذه المرحلة الَّتي شارفا فيها على وداع الحياة، وصارا مضمومين إليه في بيته وتحت كنفه ورعايته وكفالته في واحدةٍ من أسمى صور الالتجاء والاحتماء في هذي الحياة وأنبلها، بعد أنْ كان هو بالأمس ضعيفًا، قاصرًا، مضمومًا إليهما، واقعًا تحت كنفهما وكفالتهما ورعايتهما، وبعد أنْ أدركهما الكبر والضعف والعجز والشيخوخة؛ فصارا عنده في آخر العمر كما كان عندهما في أوله، وبعد أنْ بلغ الابنُ أَشُدَّهُ وٱستوى وأصبح هو المسؤولَ عنهما وعن خدمتهما والقيام بشؤونهما وتلبية ٱحتياجاتهما والعناية بهما، وذلك أشقُّ عليه وأشدُّ ٱحتمالًا وصبرًا، وربما تعين عليه أن يتولَّى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الصغر والطفولة؛ فهو مأمور بالاعتراف قولًا وعملًا بما كان لوالديه عليه من الأفضال المتواترة، والجمائل المغدقة، وشتَّى صور العناية والتنشئة والتعاهد في ظرف طفولته وعجزه وشدة حاجته إليهما، ملزمٌ شرعًا وخُلُقًا بأنْ يستعمل معهما وطاءة الخلق، ولين الجانب، والاحتمال والمصابرة؛ حتى لا يليق به القولُ لهما إذا أثقله أو أضجره ما يستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما: (أُفٍّ)؛ فضلًا عما زاد عليه من قول أو فعلٍ!

وهكذا ((يستجيش القرآن الكريم وجدان البرِّ والرحمة في قلوب الأبناء؛ ذلك أنَّ الحياة وهي مندفعةٌ في طريقها بالأحياء تُوجِّهُ ٱهتمامهم القوي إلى الأمام؛ إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل، وقلَّما تُوجِّهُ ٱهتمامهم إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولية، إلى الجيل الذاهب؛ ومِنْ ثم تحتاج البنوة إلى ٱستجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات!

إنَّ الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكلِّ شيء حتى بالذَّات، وكما تمتصُّ النابتة الخضراء

كلَّ غذاءٍ في الحبة؛ فإذا هي فُتاتٌ، ويمتصُّ الفرخ كلَّ غذاءٍ في البيضة؛ فإذا هي قشر، كذلك يمتص الأولاد كلَّ رحيق، وكلَّ عافية، وكل جهد، وكلَّ آهتمام من الوالدين؛ فإذا هما شيخوخة فانية – إن أمهلهما الأجل – وهما مع ذلك سعيدان! فأمَّا الأولاد؛ فسرعان ما ينسون هذا كلَّه، ويندفعون بدورهم إلى الأمام؛ إلى الزوجات والذرية، وهكذا تندفع الحياة!

ومِنْ ثم لا يحتاج الآباء إلى توصيةٍ بالأبناء؛ إنما يحتاج هؤلاء إلى آستجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الَّذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف! وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكَّد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله!))[٢١].

وليس النَّهي عن التَّبرُّم والتَّضجُّر والاستثقال خاصًّا بحالة الكِبَر والشَّيخوخة؛ بَلْ في كُلِّ حالٍ؛ خصوصًا تلك الَّتي يتهاونُ فيها الولدُ بأبيه لضعفه وعجزه عن الكسب! فالتَّقييد بحال الكبر والشَّيخوخة الَّتي تتأتَّى منها وتنتج عنها مظاهر الضَّعف والعجز، قد جرى مجرى الغالب؛ إذْ يغدوان أحْوَجَ إلى مزيد من الرعاية والاهتمام والبرِّ في تلك الحال المتغيرة عليهما بالضَّعف والعجز والحاجة إلى المعين والنَّاصر الَّذي يتغاضى عن العيب والأذى، ويتلقَّى الأوامر برحابة صدر وطلاقة وجه ولين جانب وخفض جناحٍ وكلام، وتحسين قول... يحتاجان إلى ذلك كله أكثر من آحتياجهما إليه في حال قوتهما وشبابهما؛ لأنهما – والحال تلك – ليسا مظنة الإهانة والإهمال، ولا مجالًا للتأفف والتضجر منهما؛ فهما في حال القوة والقدرة على مواجهة ظروف الحياة؛ بل غالبًا ما نجد العكس من ذلك تمامًا؛ إذْ نرى الأولاد في هذه الحال يتنافسون في التزلف والتقرب للآباء، ويتمنَّى كُلٌّ منهم رضاهما؛ لينال من خيرهما ورفدهما! أمَّا حال الكبر والشيخوخة؛ فيتجلى فيهما مظهر الإعالة والحاجة والضعف، فبعد أنْ كانا باذلين، مُعطيين؛ أصبحا آخذين، محتاجين، وبعد أن كانا عائلين؛ أصبحا عالة وكَلًّا على من لا يتَّقي فيهما ربه، وتنكَّر لجمائلهما عليه طوال حياته! فإنَّما نهى ﷺ عن أذاهما في

حال الكبر، وإن كان منهيًا عنه على كُلِّ حالٍ؛ لأنَّ حالة الكبر مع طُول المكث قد يُولِّدان الاستثقال، ويحصل بهما الملل ويكثر الضجر؛ فيظهر الابن غضبه على أبويه، وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة! وقد يبدر منهما في تلك الأحوال الخاصَّة ما يُضْجِرُ ويُؤذي، وتكثر المشقة والعنت الناجمان عن الدَّأب في خدمتهما؛ فتكون تلك المرحلة مظنة آنتفاء الإحسان أو التقصير فيه؛ وإلَّا فالإحسانُ إليهما والعناية بشأنهما واجب على الأبناء؛ سواء كان الآباء في سِنِّ الكبر، أم في سن الشباب، أم في غيرهما[٢٢].

والإحْسَانُ بالوالدين مطلوب ومأمور به؛ وإنْ كانا مشركين؛ لقوله جلَّ جلاله: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) [لقمان: ١٥]، وقوله ﷻ: (لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الممتحنة: ٨].

المطلب الثالث: آيات الأولى في بيان حال المؤمنين

قال ﷻ حكاية لدعاء عبده الشيخ الحاني زكريا عليه السلام: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) [مريم: ٤]، و(الوهن) هو الضَّعف، ولكلِّ شيءٍ قِوَام في الصَّلابة والقُوَّة، والعظم هو أقوى هذه الأشياء ومَحمَلُ بقية الأعضاء؛ فعليه يُبنى جسم الإنسان من لحمٍ ودمٍ وعصبٍ، وإليه يستند، وبه يتقوَّى، فإذا أصاب العظمَ - وهو أصلُ التَّركيب، وأشدُّ الأماكن، وأقوى العناصر، وأصلبُ الأجزاء - ضعفٌ ووهنٌ؛ فغيره من سائر الأعضاء الأُخرى بالضَّعف والوهن أولى، ووهن العظم يستلزم وهن غيره من أجزاء البدن الأخرى على نحوٍ أسرع وأسبق! ومِنْ ثم قال ذلك العربيُّ حينما شكا الجدب والقحط: مرَّت بنا سنون صعبةٌ؛ فسنةٌ أذابت الشَّحم، وسنةٌ أذهبت اللَّحم، وسنةٌ محت العظم! فكأنَّ العظم آخرُ مخزن من مخازن القُوت في جسم الإنسان ساعة ينقطع عنه إمدادُ الطَّعام والشَّراب!

فكأنَّ نبيَّ الله الشَّيخ الهَرِمَ زكريا عليه السلام يقول مُتوسِّلًا إلى ربِّه بضعفه وعجزه – وهذا من أحبِّ الوسائل إلى الله ﷻ؛ لأنه يدلُّ على التَّبرِّي من الحول والقُوَّة، ويُشيرُ إلى تعلُّق القلب بحول الله وقُوَّته – وعارضًا عليه حاله ورجاءه: يا ربِّ، قد ضعف عظمي، ولم يعد لديَّ إلَّا المصدر الأخير لاستبقاء الحياة! أي: يا ربِّ، قد ضعفتْ قُواي، ورقَّتْ أجزائي، وخارتْ أعضائي، وقد شختُ وولَّى جذعي وشبابي، والشَّيخوخة مُشتملةٌ على فُتُور القوى وضعف البدن وشيب الرأس، ثم عدل من التَّصريح بالشَّيخوخة والهرم إلى الكناية الَّتي هي أبلغ منهُ؛ لأنها مبنيةٌ على تشبيه مُضمرٍ في النَّفس؛ إذْ وهنتْ عظامي، ولم تَعُدْ تُغني من بدني شيئًا، وإنَّ وهن عظام البدن لازمٌ للضَّعف الأكيد، وطلب شُمُول الوهن العظام جميعًا فردًا فردًا؛ فترك جمع العظم إلى الإفراد؛ لإرادة معنى الجنسية المنبئة عن شُمُول الوهن لكلِّ فرد من أفراده؛ فإنَّ ٱستغراق المفرد أشمل من ٱستغراق الجمع؛ إذْ يكون مُكتنفًا جميع الأفراد بلا ٱستثناءٍ، ولو جمع؛ لأوْهَمَ أنه وهن مجموع عظامه لا جميعها، وفرقٌ شاسعٌ بين المجموع والجميع؛ فإنَّ الأخير قد يُوهم أنه وقع من سامعٍ شكٌّ في الشُّمُول والإحاطة؛ لأنَّ القيد في الكلام ناظرٌ إلى نفي ما يُقابله، وهذا غيرُ مُناسبٍ لمقام البثِّ والشَّكوى النَّديِّ! فحصل من قوله ﷻ: (إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) معنى (أنِّي وهنتْ سائرُ العظام منِّي)، وإسناد الوهن إلى العظم دون غيره مما شمله الخور في جسده؛ لأنه أوجز في الدَّلالة على عُمُوم الوهن جميع بدنه[٢٣]!

فمِنْ ثم خصَّ العظم بالذِّكر؛ لأنه أصلُ البدن ودعامتُهُ وعمادُهُ وقِوَامُهُ وهيكلُهُ الَّذي به هيئتُهُ وأساسُ بنائه، فإذا دبَّ الضَّعف والوهن والرَّخاوة والخور في هذا الجنس الَّذي هو أصلبُ الأعضاء وأشدُّها وأكثرها منعةً، وأقلُّها تأثُّرًا بالعلل والآفات، وبه قِوَامُها؛ كان ما وراءه من الأجزاء والأعضاء أوهنَ، وتَدَاعَى سائرُ البدن وخار وٱنهار بنيانه، وٱنقضَّتْ أركانه، وتساقطتْ قُوَّتُهُ، وكان بالوهن أولى وإليه أسرعُ؛ إذْ قد يكون العظم هو الـجُنَّة لسائر الأعضاء الرئيسة كالقِحْف للدِّماغ والقصِّ للقلب؛

فدبيبُ الضَّعف والوهن إلى الأعضاء الأُخَر وسريانه إليها أولى؛ لأنها أضعفُ وأدقُّ بطبيعة الحال والخلق والتَّكوين وأقلُّ مناعةً! ومتى ما بلغ العظمَ الضَّعفُ والوهن؛ كان ضعفُ ما عداه مما وراءه من أجزاء البدن وأعضائه ووهنه أولى وأجدرُ وأسرعُ!

ولما كان العظمُ شيئًا مدفونًا تحت الجلد واللَّحم، غيرَ ظاهرٍ؛ فهو حيثيةٌ باطنةٌ، فأراد نبيُّ الله زكرياعليه السلام أنْ يأتي بحيثية أُخرى ظاهرةٍ بينةٍ؛ فأتى بأمرٍ واضحٍ مرئيٍّ للعيان: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)، وأثر هذا الثَّاني واضحٌ باستيلاء الشَّيب على الرأس واضطرامه في السَّواد؛ فشبَّه انتشار الشَّيب في رأسه باشتعال النَّار؛ فالشَّعر الأبيض الَّذي يعلوه واضحٌ وُضُوح النَّار، والمتأمِّل في هذا التَّشبيه يجدُ أنَّ النَّار أيضًا تتغذَّى على الوقود والحطب، وتظلُّ مُشتعلةً مُتأجِّجة لها لهبٌ يعلو طالما أنَّ في الحطب الحيوية النباتية الَّتي تمدُّ النَّار بطاقة الاشتعال، فإذا ما انتهت هذه الحيوية النباتية في الحطب ونفدت تلك الطاقة المخزونة؛ أخذت النَّار بالتَّضاؤل حتَّى تخبو بالتَّدريج وتصير جذوةً لا لهب لها، ثم تنطفئ! فقوله ﷻ: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [مريم: ٤]؛ أي: صار الشَّيبُ - وهو دليلُ الضَّعف والكبر، ورسُولُ الموت ورائده ونذيره - كالنَّار، والشَّعر إزاءه كالحطب المغذِّي تلك النَّار ومُمِدّها بالوقود اللَّازم لبقائها واستمرارها، ولقُوَّة تلك النَّار المشتعلة وشِدَّتها أتتْ على الرَّأس نفسه فأحرقته كُلَّه وخلَّفته بياضًا كما تُخلِّف النَّارُ الرَّماد[٢٤]!

وقالﷻ في بيان بعض حال المتقين: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) [الأعراف: ٢٠١]، وهذا ديدنُ المتقين؛ إنهم يقظون لأدنى محاولةٍ لإغرائهم أو إغوائهم أو إزاغتهم، فكيف يكون حالهم من التَّوفُّز واليقظة لو أصابهم منه نزغٌ، أو مسَّهم بنُصبٍ وعذاب، أو ألحق بهم وسوسةً ظاهرةً مفضيةً إلى فسادٍ كبير أو ضلالٍ مُبينٍ؟!

و(الطَّائف)؛ من الطواف، والطواف بالشيء: الاستدارة به أو الإحداق حوله وتطويقه، و(الطَّائف): الَّذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له

بالدُّخُول؛ فهو النَّازل بالمكان قبل دُخُوله ذلك المكان، وكانت عادةُ العرب أنَّ القادم إلى أهل بيتٍ، العائذ بربِّ ذلك البيت، المستأنس للضِّيافة والقِرَى، يستأنس فيطوف بالبيت ويستأذن لإيوائه! وأُطلِقَ هُنا على الخاطر الَّذي يخطر في النَّفس يبعث على فعل شيءٍ نهى الله ﷻ عن فعله، شُبِّهَ ذلك الخاطرُ في مبدأ جَوَلَانِهِ في النَّفس بحلول الطَّائف قبل أن يستقرَّ! وهو أيضًا: الخيالُ المجرَّد عن الحقيقة الَّذي يطُوفُ بالإنسان ليلًا أثناء النَّوم، وأصْلُ معناهُ: الاتِّصال والإلمام اليسير، أو المسُّ الطَّارئُ، وتنوينُهُ للتَّقليل والتَّحقير، والمُراد به هُنا: وسوسة الشيطان وهمزاته وخطراته المتواترة لحمل من يتمكَّن من حمله على الزَّلل والمعصية أو التحريش لإيقاع البغضاء والتفرقة! سُمِّيتْ (طائفًا)؛ لأنها تطُوفُ بهم من جميع جوانبهم إلَّا من فوق، وتدور حولهم، لا تُفارقهم، ولا تنفكُّ عنهم؛ لتتصيدهم وتُوقِعَ بهم في حَبَائِلِهِ وشِرَاكِهِ؛ لقوله ﷻ: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) [الأعراف: ١٦- ١٧]! ونحن نُصَوِّر الشَّيطانَ على أنه خيالٌ؛ بحكم أنه لا يُمكننا رؤيته، ونُسمِّي وسوسته (طيفًا)؛ لأنها لَـمَّةٌ تُشبه لَـمَّةَ الخيال[٢٥]!

وفي قوله ﷻ: (إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ) إشعارٌ بعُلُوِّ منزلتهم، وقُوَّة إيمانهم، وسلامة يقينهم، واتصال ترقُّبهم، ودوام حيطتهم وحذرهم؛ لأنهم بمُجرَّد أنْ تطوف بهم وساوسُ الشيطان أو بمُجرَّد أن يمسَّهم شيءٌ منه؛ فإنهم يتذكَّرون خالقَ الشَّيطان وخالقَهم، ويُدركون بأنَّ مَسَّ الشَّيطان عمى، وأنَّ تذكُّر الله إبصارٌ، ويعُونَ أنَّ مَسَّ الشَّيطان ظُلمةٌ، وأنَّ الاتِّجاه إلى الله نورٌ، ويستحضرون في الأذهان عداوة ذلك اللَّدود المتربِّص العريقةَ لهم وإغواءه القديمَ لأبيهم من قبلُ، وتتفتح بصائرهم وتتكشف الغشاوة عن أعينهم، ويضعون نُصْبَهَا منهجَ الله الَّذي يُصادم شهواتهم ويُحدِّد رغباتهم، وأيقنوا بأنَّ عين الله تراهم وترقبهم ولا تغفل عنهم لحظةً، وأنَّ محارمه واضحةٌ وبيِّنةٌ؛ فيرجعون سريعًا فارِّين إلى حمى ربهم، ويلوذون

إلى جنابه مستجيرين بكنفه وتائبين إليه، وطالبين منه العون والمدد والتوفيق! وفي التعبير عن الوسوسة بـ(الطَّائف) إشعارٌ بأنها وإنْ مَسَّتْ هؤلاء المتقين؛ فإنها لا تُؤثِّر فيهم؛ لأنها كأنها طافتْ حولهم ثم مرَّتْ مُرُور اللِّثام دُونَ أنْ تَصِلَ إليهم أو أنْ تتغلغلَ فيهم[٢٦].

وكذا فإنَّ في التَّعبير بـ(النَّزغ) في مقام النبيِّ ﷺ، وبـ(المَسِّ)، و(الطَّائف) في جانب المتقين، إشارةٌ إلى أنَّ ما يكيدُ به الشَّيطانُ للنَّبيِّ هو شيءٌ عارضٌ، لا يكاد يُجاوِزُ اللَّحظة العابرة، واللَّمسة المذعورة في مُحاولةٍ بائسةٍ لخطفةٍ يائسةٍ! أمَّا ما يكيدُ به للمؤمنين؛ فهو مَسٌّ يكادُ يكتنفهم ويحتويهم، ويُحوِّم ويطوف بهم، ويستدير حولهم ويُطوِّقُهُم ويشتملُ عليهم؛ وذلك لأنَّ النَّبيَّ الكريم في مقامه العالي من الورع والتقوى، وفي مستواه الرَّفيع من اليقظة والتَّرقُّب، في حِرْزٍ حَرِيزٍ وحِصْنٍ حَصِينٍ؛ بحيثُ لا يكادُ يجدُ الشَّيطانُ له فيه ثغرةً أو منفذًا، وإنْ وجد؛ فهو أضيقُ من سَمِّ الخِيَاطِ؛ يخنقه فيقتله ويُبيدُهُ! وهكذا المؤمنون ومقدارُ ما في قُلُوبهم من تقوىً وزادٍ ليوم المعاد، فكُلَّما كان رصيدُ المؤمن من التقوى طيبًا؛ كان تأثيرُ الشَّيطان فيه ضعيفًا؛ لأنَّ التقوى هي الملاذُ الآمِنُ والوَزَرُ الممتنع الَّذي يقصده المؤمن لاجئًا من أن يترصَّده الشَّيطانُ أو أن يطوف به؛ فمسُّ الشَّيطان تجلُوهُ التقوى، وتُجدِّدُهُ التَّوبةُ والإنابةُ؛ فما له على المتقين من سبيلٍ أو سُلطانٍ، وكُلَّما كان هذا الحصن متينَ الأركان، متماسك البُنيان، راسي القواعد؛ ضاقتْ منافذُ الشَّيطان، وخارتْ قُواهُ، وسُقِطَ في يده، وأُوصِدَتْ دُونَ كيده الأبواب، وبارت عنده الحيلُ والأسبابُ؛ وإلَّا فإنَّ طوافه وتحويمه سيُؤثِّر فيهم تأثيرًا ما، ويمسُّهُم مَسًّا هو أكبرُ من النَّزغ وأبلغ أثرًا؛ لكونه قد أغار عليهم وأجلب، وأطاف بهم فأطنب، ومَنْ زاد على نفسه بالإسراف؛ زاد عليه الشيطان بالمسِّ النَّاجم عن كثرة التَّطواف والواشي بالشَّماتة والاستخفاف؛ حتَّى يغلبه ويصرعه ويُغويه بعد أن يُغريه؛ فإنَّ مَسَّ الشيطان يُعمي البصر ويطمسه، ويغلق البصيرة ويُسكِّرها[٢٧]!

فـ(((النَّزغُ) من الشَّيطان أخفُّ من (مَسِّ الطَّائف) من الشَّيطان؛ لأنَّ (النَّزغ): أدنى حركةٍ، و(المسُّ): الإصابةُ،

و(الطَّائِفُ): ما يطوفُ به ويدُورُ عليه؛ فهو أبلغُ لا محالة! فحالُ المتَّقين تزيدُ في ذلك على حالِ الرَّسُولِ ﷺ! وانظر لحُسن هذا البيان؛ حيثُ جاء الكلامُ للرَّسُول؛ كان الشَّرطُ بلفظ (إنْ) المحتملة للوُقُوع ولعدمه، وحيثُ كان الكلامُ للمتَّقين؛ كان المجيءُ بـ(إذا) الموضوعة للتَّحقيق أو للتَّرجيح، وعلى هذا فـ(النَّزغُ) يمكن أنْ يقع، ويمكن أنْ لا يقع، و(المسُّ) واقعٌ لا محالة أو يُرجَّحُ وُقُوعُهُ))[٢٨]، وفي ذلك يقول الإمامُ الفخرُ الرَّازيُّ رحمه الله: ((إنَّ الرَّسُول لا يحصُلُ له مِنَ الشَّيطان إلَّا النَّزغُ الَّذي هو كالابتداء في الوسوسة، وجوَّز في المتَّقين ما يَزيدُ عليه؛ وهو أنْ يمسَّهم طائفٌ مِنَ الشَّيطان، وهذا المسُّ يكُونُ لا محالة أبلَغَ مِنَ النَّزغ))[٢٩].

المطلب الرابع: آيات الأولى في تصحيح المفاهيم المغلوطة

قال ﷻ في تصحيح الفكر حول تقرير مبدأ الصِّلات التي ستنقطع يوم القيامة: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) [فاطر: ١٨]؛ أي: ((لا تحملُ نفسٌ حِمْلَ نفسٍ أُخرى؛ أي: إثمها؛ بَلْ كُلُّ نفسٍ تحمل وزرها. ولا تُخالف هذه الآيةُ قوله ﷻ: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) [العنكبوت: ١٣]؛ لأنهم إنما حملوا أثقالَ إضْلَالهم مع أثقال ضَلَالهم، والكُلُّ من أوزارهم، لا من أوزار غيرهم... وإنْ تَدْعُ نَفْسٌ مُثقَلَةٌ بالذُّنُوبِ نَفْسًا أُخرى إلى حِمْلِ شيءٍ من ذُنُوبها مَعَهَا؛ لم تحملْ تلك المدْعُوَّةُ من تلك الذُّنُوبِ شيئًا؛ ولو كانتْ قريبةً لها في النَّسَبِ، فكيف بغيرها مِمَّا لا قرابة بينها وبين الدَّاعية لها؟!))[٣٠]، ونظير ذلك قوله جلَّ جلاله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا) [لقمان: ٣٣].

((والفرق بين معنى قوله ﷻ: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)، وبين قوله ﷻ: (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ): أنَّ الأوَّلَ دَالٌّ على عَدْلِ الله ﷻ في حُكْمِهِ، وأنه لا يُؤاخِذُ نفسًا بغير ذنبها، والثَّاني: في بيان أنه لا غِيَاثَ يومئذٍ لمن ٱستغاث، فمن أثقلته ذُنُوبُهُ، ثُمَّ ٱستغاث بأحَدٍ؛ لم يُغِثْهُ، وهذا غايةُ الإنذَارِ!))[٣١].

وبِذَا تُقرِّر الآيةُ الكريمةُ حقيقة

فردية التَّبعة والجزاء الفرديِّ الَّذي لا يُغني فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئًا؛ فكلٌّ من بني الإنسان مُحاسبٌ على ما كسبت يداه، يحمل حمله وحده، لا يعينه أحدٌ عليه! ولعلَّ في الآية إشارةً إلى ما كان عليه التَّضامُنُ القبليُّ والتَّحامُلُ الأُسريُّ في المجتمع العربيِّ من قُوَّة؛ فالعربيُّ كان يتحمَّل مسؤولية ما ٱقترف قريبُهُ من جرائم، ويُعينُهُ على أعبائها، ويشترك معهُ في غراماتها!

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذاتُ أثرٍ حاسمٍ في الشُّعُور الأخلاقيِّ، وفي السُّلُوك العمليِّ سواءٌ؛ فشُعُورُ كلِّ فرد بأنه مجزيٌّ بعمله، لا يُؤاخَذُ بكسب غيره، ولا يتخلَّص هو من كسبه، عاملٌ قويٌّ في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أنْ تُحاسَبَ! مع التَّخلِّي عن كلِّ أملٍ خادعٍ في أن ينفعه أحدٌ بشيء، أو أن يحمل عنه أحدٌ شيئًا. كما أنه - في الوقت نفسه - عاملٌ مُطمْئنٌ؛ فلا يقلق الفردُ خيفة أنْ يُؤخذ بجريرة الجماعة؛ فيطيش ويأس من جدوى عمله الفرديِّ الطيب ما دام قد أدَّى واجبه في النُّصح للجماعة ومُحاولة ردِّها عن الضَّلال بما يملك من وسيلةٍ.

إنَّ الله ﷻ لا يُحاسبُ النَّاسَ جُملةً بالقائمة؛ إنما يُحاسبُهم فردًا فردًا؛ كُلًّا على عمله وفي حدود واجبه، ومن واجب الفرد أنْ ينصح وأنْ يُحاول الإصلاحَ غاية جهده، فإذا قام بقسطه هذا؛ فلا عليه من السُّوء في الجماعة الَّتي يعيش فيها؛ فإنما هو مُحاسبٌ على إحسانه! وكذلك لن ينفعه صلاحُ الجماعة إذا كان هو بنفسه غيرَ صالحٍ!

والتَّعبير القرآنيُّ يُصوِّر هذه الحقيقة على طريقة التَّصوير في القُرآن؛ فتكون أعمق معنىً وأبلغ أثرًا، يُصوِّر هولَ القيامة وٱضطرار كلِّ ٱمرئ فيها للانشغال بنفسه دون غيره، وعدم حمل أحدٍ مسؤولية أحدٍ؛ مهما كانت الصِّلة الَّتي تجمع بينهما؛ فليستْ حالُ الآخرة بمنزلة حالِ الدُّنيا، يساعد الحميم حميمه، ويُسعف الصَّديق صديقه؛ بل يتمنى المرءُ يوم القيامة لو كان له حقٌّ - أيُّ حقٍّ - على أحدٍ - أيِّ أحدٍ - ؛ ولو على والديه أو زوجه أو أبنائه أو ذوي قُرباه!

يُصوِّر لنا التَّعبير القرآنيُّ كلَّ نفسٍ حاملةً حملها؛ فلا تحملُ نفسٌ حملَ أُخرى، وحين تثقل نفسٌ بما تحمل ثم تدعو أقرب

الأقرباء ليحمل عنها شيئًا؛ فلن تجد من يُلبِّي دعاءها ويُعينُها ويرفعُ عنها شيئًا مما يُثقلها! إنه مشهد القافلة، كلٌّ من فيها يحملُ أثقاله، ويمضي في طريقه؛ حتى يقف أمام الميزان والوزَّان! وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والإعياء، واهتمامُ كلٍّ بحمله وثقله، وانشغالُهُ عن البُعَدَاء والأقرباء، وقد تكرَّر هذا المعنى مرَّة بعد مرَّة في القرآن المجيد؛ لأنه مُستمدٌّ من واقع حال السَّامعين، وقد ورد بأُسلُوبٍ قويٍّ في سُوَرِ: [البقرة/ الآيتين ٤٨، و١٢٣]، و[المعارج/ الآيات ١٠- ١٤]، و[عبس/ الآيات ٣٣- ٣٧]، وغيرها، وهذا إبطالٌ صريحٌ لاعتقاد الغناء الذاتيِّ بالتضامُنِ والتَّحَامُلِ الذي كان سائدًا في ذلك المجتمع؛ إذْ كان المشركون يقيسون أُمُورَ الآخرة على أُمُورِ الدُّنيا؛ فيُعلِّلون أنفُسَهم إذا ما هُدِّدوا بالبعث والحساب والجزاء بأنه وعيدٌ إنْ صَحَّ؛ فإنَّ لهم يومئذٍ شُفعاء وأنصارًا؛ فنزلت الآياتُ تلو الآيات لتبين لهم أنْ ليستْ حالُ الآخرة بمنزلة حالِ الدُّنيا على ما مرَّ بيانُهُ قبل أسطرٍ[٣٢]!

المطلب الخامس: آيات الأولى في التعجيز والتحدي

وفي معرض التعجيز والتبكيت والتحدي قال ﷻ: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ...) [البقرة : ٢٣]، وإنَّما قال ﷻ: (مِمَّا نَزَّلْنَا) على لفظ (التَّنزيل) دُون (الإنزال)، ومعلومٌ بأنَّ القُرآن قد نزل مُنَجَّمًا في مُدَّةٍ ربتْ على العشرين عامًا؛ لأنَّ المرادَ بيانُهُ في هذا المقام هو النُّزُولُ على سبيل التَّدريج والتَّفريق والتَّنجيم؛ وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا القُرآنُ من عند الله حقًا؛ لم ينزلْ هكذا نجومًا، سُورةً بعد سُورةٍ، وآياتٍ عَقِبَ آياتٍ، على حَسَبِ النَّوازِلِ، وكِفَاء الحوادث[٣٣]، وعلى سَنَنِ ما نرى عليه أهل الخَطَابة والشِّعر من وُجُود ما يُوجد منهم مُفرَّقًا حينًا فحينًا، وشيئًا فشيئًا بحَسَبِ ما يَعُنُّ لهم[٣٤] من الأحوال المتجدِّدة، والقرائح المقبلة، والحاجات السَّانحة، والرَّغبات الجامحة، فلو كان الله قد أنزله حَقًّا؛ لأنزله على خِلَافِ هذه العادة جملةً واحدةً (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) [الفرقان: ٣٢]! فقيلَ لهم: إنِ

ٱرتبتم في هذا الَّذي وقع إنزالُهُ هكذا على مَهْلٍ وتدريجٍ؛ فأتوا أنتم بنَوْبةٍ واحدةً من نُوَبِهِ، وهاتوا نجمًا فردًا من نجومه: سُورةً من أقصر السُّوَرِ، أو آياتٍ شتَّى مُفترياتٍ، وهذا التَّحدِّي المجلجل غايةُ التَّبكيت، ومُنتهى إزاحة العلل، وبالغ إظهار الخور والضَّعف والعجز[٣٥]!

وقد تحدَّى الله ﷻ الخلق كلهم من الجنِّ والإنس بالعجز عن الإتيان بمثل القُرآن؛ بقوله ﷻ: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [الإسراء: ٨٨]، وقوله ﷻ: (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [القصص: ٤٩]، فلما ظهر عجزُهُم؛ قال ﷻ: (قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) [هود: ١٣]، فلما عجزوا؛ قال ﷻ: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [الطور: ٣٤]، وقال عزَّ من قائل: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ...)؛ فتحدَّاهم بالإتيان بمثل أقصر سُورةٍ منهُ؛ فجاء هذا العرضُ المتدرِّج في النُّزُولِ على وجه الإنصاف والتَّنزُّل معهم، وكذا فإنَّهم خُوطبوا جميعًا - وهم الجمُّ الغفيرُ - بأنْ يأتوا بطائفةٍ يسيرةٍ من جنس ما أتى به واحدٌ منهم، وذلك - بلا ريبٍ - أبلغُ في التَّبكيت والتَّعجيز والتَّحدِّي من أنْ يُقال لهم: ليأتِ واحدٌ آخر منكم بنحو ما أتى به هذا الواحدُ! فلما ظهر عجزُهُم عن ذلك كلِّه، ويئسوا عن مُباراته أو مُجاراته أو معارضته وتَوْهِينِ أمْرِهِ، وقامتْ عليهم الحجة، وأعرضوا عن طريق المُحاجَّة، وصمَّموا على القتال والمغالبة؛ أمر الله نبيه بقتالهم!

وبِذَا تدرَّج الحقُّ ﷻ في تحدِّي الكافرين تنازليًا؛ فطلب منهم الإتيانَ بمثل هذا القرآن، ثم طلب منهم الإتيانَ بعشر سُورٍ من مثله، ثم تدرَّج نازلًا معهم في التَّحدِّي فطلب منهم الإتيانَ بسورةٍ واحدةٍ فقط! والنُّزولُ في هذا التَّحدِّي من القرآن كلِّه إلى عشر سُورٍ، ثم إلى سورةٍ واحدةٍ دليلٌ دامغٌ ضِدَّ من تحدَّاهم؛ إذْ لم يستطيعوا الإتيانَ بمثل القرآن؛ فاقترح عليهم الإتيانَ بعشر سُورٍ، ويثبُتُ عجزُهُم، ويُصبح موقفُهُم الحرج مدعاةً للسُّخرية؛ فينزل معهم أكثر إلى الإتيان

بسُورةٍ واحدةٍ فقط، ويعجزون، وهذا غاية الضعف ومنتهى الاستهانة بالَّذين تحدَّاهم الله ﷻ، وإثباتٌ لا يقبلُ المراءَ ولا الجدالَ بأنَّ قُواهم خائرةٌ، ومُحاولاتهم بائرةٌ، وأنهم لا شكَّ عاجزون، وأنهم لا يقدرون مما يزعُمُون ويُحاددون ويتشدَّقون على شيء حين قالوا: (قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) [الأنفال: ٣١]!

وإتمامًا للتَّحدِّي طلب الله ﷻ إلى هؤلاء أنْ يأتوا هُم - بعد جَمْعِ القُوى، وتوحيد الصُّفُوف، وشَحْذ العزائم، وتضافر الجهود - بالشُّهداء، ويَعْرِضُوا عليهِمُ الآية أو الآيات المفتراة؛ ليحكم هؤلاء الشُّهُودُ ما إذا كان ما جاءوا به مثلَ القُرآن أو لا! أفليس في هذا العرض الفريد إظهارٌ لمنتهى القُوَّة والعزَّة لله ﷻ؟! لأنه لم يشترط شُهَدَاءَ من الملائكة، ولا شُهَدَاءَ مِنَ الرُّؤساء والأشراف، ولا شُهَدَاءَ مِنَ الآلهة المزعومة، ولا شُهَدَاءَ مِنَ الَّذين اشتُهِرَ عنهم خَرْقُ الآفاق أو السُّرُوبُ في الأنفاق، ولا شُهَدَاءَ مِنَ الَّذِينَ عُرِفُوا بفصاحة اللِّسان، أو قُوَّة البيان، أو الصِّدق والشَّهادة بالحقِّ، ولا شُهَدَاءَ مِنْ كُلِّ مَنْ يُؤمِّلونَ منهم المَدَدَ والعونَ؛ بل ترك لهم أنْ يأتوا هُم بالشُّهداء على مِزَاجِهِم ومُشْتَهَاهم، وكما يروقُ لهم وينتصرُ لعريض دعواهم، وهؤلاء الشُّهداء لن يستطيعوا أنْ يشهدوا ببنت شفةٍ أنَّ كلام هؤلاء المشكِّكين - على فرض الإتيان به وتأليفه - يُماثِلُ سُورةً من القُرآن ويُضاهي أُسلُوبها الفريد! طلب الحقُّ ﷻ إليهم أنْ يأتوا بأيِّ شُهداء مُتحيِّزين لهم، وأطلقها كلمةً مجلجلةً ودعوةً عامَّةً، مُتردِّدةً في الآفاق، ماضيةً في طريقها على كُلِّ أجناس الأرض ومن قصدها أو مرَّ بها من أهل السَّمَوَات (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ٢٣]!

((وهذا التَّحدِّي ظلَّ قائمًا في حياة الرسول ﷺ وبعدها، وما يزال قائمًا إلى يومنا هذا، وهو حُجَّةٌ لا سَبِيلَ إلى المماحكة فيها، وما يزالُ القُرآنُ يتميَّز من كُلِّ كلامٍ يقوله البشرُ تميُّزًا واضحًا قاطعًا، وسيظلُّ كذلك أبدًا... والتَّحدِّي هُنا عجيبٌ، والجزم بعدم إمكانه أعجبُ، ولو كان في الطَّاقة تكذيبُهُ؛ ما توانوا عنه لحظةً! وما من شَكٍّ أنَّ تقرير القُرآن

الكريم أنهم لن يفعلوا، وتحقُّقَ هذا كما قرَّره هو بذاته معجزةٌ لا سَبِيلَ إلى المماراة فيها! ولقد كان المجالُ أمامهم مفتوحًا، فلو أنهم جاءوا بما ينقض هذا التَّقريرَ القاطعَ؛ لانهارتْ حُجِّيَّةُ القُرآن؛ ولَكِنَّ هذا لم يقعْ، ولن يقَعَ كذلك! فالخطابُ للنَّاس جميعًا؛ ولو أنه كان في مواجهة جيلٍ من أجيالِ النَّاس))[٣٦].

وتكرار التعجيز والتَّحدِّي بهذه القُوَّة للنَّاس جميعًا في أوائل العهد المدنيِّ، مع تقرير الاستسلام والعجز بأُسلُوبِ التَّأبيد (وَلَنْ تَفْعَلُوا) ينطوي على أنَّ هذا العجز قد ٱستمرَّ طيلة العهد المكِّيِّ أوَّلًا، ثم ينجلي عن معنىً قويٍّ ماضٍ بسبيل تلقين الشُّعُور التَّامِّ بالوُثُوق في صِحَّةِ الرِّسالة النَّبوية، والصِّلة الوثيقة الَّتي لا تنفصمُ عُراها لهذا القُرآن بالوحي الرَّبَّانيِّ وصُدُورِهِ عنه، كما يُومِئُ إلى موقف القُوَّة والعِزَّة والاستعلاء والتَّأييد للنَّبِيِّ ﷺ كما هو المتبادر الَّذِي يشهدُ به واقعُ الحال[٣٧].

((وليس الكشفُ عَنْ صِدْقِ هذا الكتابِ وعَنْ عُلُوِّ مُتَنَزَّله بالأمر الَّذي يعجز عنه العربيُّ؛ إذْ هو ناطقٌ بلسانه، مُتَحَدِّثٌ باللُّغة الَّتي يعرف دَقَائِقَ أسرارها وروائعَ أساليبها، وما عليه إلَّا أنْ يستمعَ إلى آياتٍ من هذا الكتاب، ثم إلى ما يتخيَّر من فُنُون الكلام عند قومه؛ مِنْ شعرٍ، وخَطَابةٍ، وأمثالٍ، وسَجَعِ كُهَّانٍ... ثم يَزِنُ كِلَا القولين بأيِّ ميزانٍ من موازين القول عنده، وفي غير عناءٍ سيبدو له أنه يُقابِلُ الدُّرَّ بالحصى، ويُفاضِلُ بين الجواهر والأصْدَاف، وأنَّ كلامَ الله هو كلامُ الله، وأنَّ كلامَ النَّاس هو كلامُ النَّاس! فإنْ شكَّ شاكٌّ في هذا؛ فليضعْ الأمرَ موضعَ الامتحانِ العمليِّ؛ فهذه كلماتُ الله في جلالها وسُمُوِّها تقفُ في الميدان مُتَحَدِّيةً أربابَ الفصاحة والبيان بكُلِّ صُوَرِ التَّحدِّي أنْ يأتوا بسُورَةٍ من مِثْلِ هذا القُرآن، وأنْ يجمعوا إليهم كُلَّ ما ٱستطاعوا جمعه من قُوَىً مادِّيَّةٍ ومعنويةٍ، بشريةٍ أو غير بشريةٍ، وهيهاتَ أنْ يبلُغُوا من ذلك إلَّا العجزَ والاستخزاءَ!))[٣٨].

ومعنى كلمة (مِثْل) في آيات التَّحدِّي: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [الإسراء: ٨٨]، و(قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) [هود: ١٣]، و(فَلْيَأْتُوا

بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [الطور: ٣٤]، و(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ...) [البقرة: ٢٣]: أنَّ الحقَّ ﷻ قد طلبَ إليهم الإتيانَ بالمثيل والشَّبيه والنظير، ولم يطلُبْ إليهم الإتيانَ بنصِّ القُرآن في سُمُوِّ رُتبته وعُلُوِّ طبقته، ولا في إحكام تشريعاته ورَصَانة نُظُمِهِ، ودقَّة أخباره، ونظيرُ هذا كَمَنْ يَتَحَدَّى صاحبه بتصنيفه؛ فيقول: ٱئتني بمثله، ٱئتني بنصفه، ٱئتني بربعه، ٱئتني بِمَسْأَلَةٍ منهُ... وهذا إمعانٌ في إزالة العُذْرِ، وزيادةٌ في إظهار عجز القوم الَّذين لا يؤمنون بالله ﷻ، ويُشكِّكون في القُرآن، وتأكيدٌ لبيان أنَّ موقفهم حَرِجٌ للغاية، وأنه في مُنتهى الهشاشة والضَّعف، وأنه مَدْعَاةٌ للسُّخرية والاستهانة والتَّندُّر[٣٩]!

وقال ﷻ في تبكيت من يدعون من دونه أندادًا وتوبيخهم وتسفيه عقيدتهم وتعجيزهم: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) [فاطر: ١٣]، (القطمير): القشرةُ واللِّفافةُ البيضاءُ المحيطةُ بنواة التَّمر؛ بما في ذلك النَّقير والفتيل، أو هو النُّقطة والنُّكتة والنُّدبة الصَّغيرةُ الكائنةُ في ظهرها، والمعنى: أنَّ هؤلاء الَّذين يدعونهم ويتوجَّهون لهم من دون الله لا يملكون شيئًا ولو كان صغيرًا، حقيرًا، تافهًا؛ ولو كان ذلك الشَّيءُ بمقدار القشرة واللِّفافة الرَّقيقة المحيطة بنواة التَّمر، والَّتي هي أحقرُ الأشياء؛ فسَلَبَ منهم صفةً واحدةً؛ وهي المِلْكُ؛ لأنه يلزم من عدم المِلْكِ عدمُ الخلق؛ لأنهم لو خلقوا شيئًا؛ لملكوه، فإذْ لم يملكوا قطميرًا ولا بعيرًا؛ فما خلقوا قليلًا ولا كثيرًا، وما لم يخلقْ؛ فهو مخلوقٌ، والمخلوقُ عبدٌ، ولا يصحُّ أن يكون معبودًا!

فهذا مَثَلٌ يُضرب في القِلَّةِ المتناهية والضَّآلة والحقارة وانعدام القيمة، ومعبودات هؤلاء لضعفها وهوان شأنها وعجزها عن أيِّ تصرُّفٍ صارتْ مَضْرَبَ المثل في حقارتها بأنها لا تملك شيئًا؛ فتيلًا ولا قطميرًا، ولا نواةً ولا بعيرًا؛ فكونها لا تملك أعظمَ من ذلك وأجلّ معلومٌ بفحوى الخطاب، وذلك حاصلٌ بالمشاهدة، ولا يحتاجُ إلى بُرهانٍ أو إعمال فكرٍ؛ فإنَّ أصنامهم حجارةٌ جاثمةٌ لا تملك شيئًا بتكسُّبٍ، ولا تحوزه بهبةٍ، فإذا ٱنتفى أنها تملك شيئًا؛ ٱنتفى عنها وصفُ الإلهية الخالقة بطريق الأولى، ثم ٱنتفى جميعُ ما يرتبط بذلك مما كانوا يزعُمُونه

من أنها أهلٌ للعبادة، وأنها تستحقُّ التَّعظيمَ والتَّبجيلَ، وأنها تنفعُ وتضُرُّ في الدُّنيا، وأنها ستشفعُ لهم وتدفعُ عنهم يوم القيامة(٤٠).

المطلب السادس: آيات الأولى في الزجر والوعيد

وفي معرض الزجر والوعيد قال ﷻ: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ* فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، هذا في الـ(بعض)، وهي للتقليل، فكيف بالكثير؟! فلو زاد حرفًا واحدًا على ما أوحيته إليه أو نقص؛ لعاقبته وهو أكرم النَّاس عليَّ! والمعنى: ولو نسب إلينا قليلًا من أقوالٍ كثيرةٍ صادقةٍ؛ أي: لو نسب إلينا شيئًا قليلًا من القُرآن لم نُنزِّله؛ لأخذنا منه باليمين؛ أي: لأخذناه بقُوَّةٍ مقتدرةٍ من دُون إمهالٍ... و(اليمين): اليد اليمنى، كُني بها عن الاهتمام بالتَّمكُّن من المأخوذ؛ لأنَّ اليمين أقوى عملًا من الشِّمال؛ لكثرة استخدامها؛ فنسبةُ التَّصرُّف إليها أشهرُ، والمعنى: لأخذناه أخذًا عاجلًا؛ فقطعنا وتينه، وما وجد له أحدًا يرد عنه بأسنا أو يقف منه موقف الناصر والمعين؛ لجرأته على تكلُّف الكذب علينا من أجلكم! وفي هذا التَّعبير الفريد تفظيعٌ وتهويلٌ لصورة الأخذ بتصوير الإهلاك بأشنع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليهم وأشدِّه وأنكاهُ؛ لما فيه من الإذلال والإهانة والقهر؛ فَمِنْ ثم لم يقتصر على نحو: (لمنعناه)، أو (لعذَّبناه)، أو (لأهلكناه)، أو نحو ذلك!

ففي تلك الصِّيغة من زمجرة التَّهديد والوعيد حركةُ الأخذ باليمين وقطع الوتين، وهي حركةٌ عنيفةٌ، هائلةٌ، مُروِّعةٌ! وفيها كذلك الإيحاءُ بقُدرة الله العظيمة وأخْذِهِ الأليمِ الشَّديد، والإشارةُ إلى عجز المخلوق البشريِّ أمامها وضعفه، وفيها الإيماءُ إلى جِدِّيَّة هذا الأمر الَّتي لا تحتملُ تسامحًا ولا مُحاباةً ولا مجاملةً لأحَدٍ كائنًا من كان؛ ولو كان مُحَمَّدًا الكريم عند الله، الأثيرَ، الحبيبَ! وفيها بعد هذا كله إيقاعُ الرهبة والهول والخشوع! وبِذَا حملت الآيةُ الكريمةُ معنى التَّنبيه والتَّحذير والتَّهديد والوعيد والزَّجر الشَّديد لكُلِّ مُفترٍ كذَّابٍ أشِرٍ من أن يُغيِّر شيئًا من كتاب الله ﷻ، وأنَّ الله ﷻ

لا يُبقي على ظهر الأرض أحدًا يدَّعي أنَّ الله أوحى إليه كلامًا يُبلِّغه إلى الناس، ولا يُمهِلُهُ؛ بل يُعجِّل بهلاكه[٤١]!

ومفادُ القول في هذا الأُسلُوب من الناحية التقريرية: إنَّ مُحَمَّدًا لا يكذب علينا؛ لأنه أرفعُ من ذلك؛ بلْ هو صادقٌ، بارٌّ، راشدٌ؛ لأنَّ الله ﷻ مُقرِّرٌ له ما يُبلِّغه عنه، ومُؤيِّد إيَّاهُ بالمعجزات الباهرات، والدلالات القاطعات، والنَّصر والتَّمكين! فما في الآية الكريمة ٱستبعادٌ لأنْ يكُونَ من رَسُول الله ﷺ في هذا القُرآن كلمةٌ واحدةٌ أو حرفٌ واحدٌ من عنده، أضافه إلى نفسه مِنْ دُون أنْ يُوحى به إليه، ثم أسنده إلى الله ﷻ؛ فإنَّه لو كان فعل ذلك – ومُحالٌ أن يفعله – لطاله من الله أشدُّ العقاب، ولما كان شيءٌ من ذلك لم يقعْ؛ فهو لا بُدَّ صادقٌ فيما بلَّغه، أمينٌ فيما ٱئتُمِنَ عليه! ومِنْ ثم ٱستبعد بعض المفسِّرين أن يكُونَ الضَّميرُ المستتر في (تَقَوَّلَ) عائدًا إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لاستحالة وُقُوع ذلك منهُ[٤٢].

وقال ﷻ مُتوعِّدًا من يتلاعبون بحقوق الناس في المكيال والميزان فيختلسون منها: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) [المطففين: ١ – ٣]، و(الكيل): المعيارُ لما يُكالُ حجمًا، و(الوزن): المعيار لما يُقدَّر كثافةً، وٱقتصار النظم القرآنيِّ الحكيم على ذكر الاكتيال حين الاستيفاء، وذكر الكيل والميزان حين الإخسار؛ لما عُلم من أنَّ التَّطفيف والبخس في الكيل لا يكون إلَّا بالطفيف؛ وهو الشيء القليل والنزر اليسير والصنف التَّافه الحقير الَّذي لا يُعبأ به في الأغلب، دون التطفيف والإنقاص في الوزن؛ فإنَّ أدنى حيلةٍ فيه قد تُفضي إلى الشيء الكثير، ولأنَّ ما يُوزنُ أكثرُ قيمةً وأعلى شأنًا وأغلى ثمنًا في كثيرٍ من الأحوال مما يُكالُ! فإذا أخبرت الآية بأنهم لا يُبقون على النَّاسِ ما هو قليلٌ مهينٌ من حُقُوقِهِم؛ عُلم أنهم لا يُبقون عليهم الكثير الَّذي لا يتسامح فيه أكثرُ النَّاس إلَّا نادرًا بالطريق الأولى!

زِدْ على ذلك أنَّ المتأمل يجدُ أنَّ الحقَّ ﷻ حينما أراد دقَّة الأحجام في تعاملات النَّاس؛ أمرهم بإيفاء الكيل حَقَّه (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ) [الأنعام: ١٥٢، والإسراء: ٣٥]. أمَّا في الوزن؛ فقد ركز على دقته، وجعله

بالقسطاس، وليس القسطاس فحسب؛ بل المستقيم، فلماذا هذه الدقة المتناهية في الميزان بالذَّات؟! لو نظرنا إلى عملية الكيل؛ لوجدناها واضحةً مكشوفةً، قلَّما يستطيع إنسانٌ الغِشَّ فيها، وغالبًا ما ينكشف أمره ويُعلم تلاعبه؛ لأنَّ الكيل لا يكون إلَّا ظاهرًا أمام الأعين؛ ومِنْ ثم فإنَّ التلاعب فيه يكون مكشوفًا؛ إلَّا من بلغ في الحيلة أنْ جعل لنفسه مكيالين: مكيالًا يشتري به، وآخر يبيع به؛ فهؤلاء المطفِّفونَ المتوعَّدونَ بالويل (يكتالون على الناس) لا (مِنَ النَّاس)؛ فكأنَّ لهم سُلطانًا قسريًا وقهريًا على النَّاس يَغمِطُونَ به أشياءهم بشتَّى الوسائل المتاحة على نحوٍ من التَّعسُّف الإكراه! أمَّا الوزن؛ فغير ذلك تمامًا؛ إذْ يُعدُّ مجالًا رحبًا للتغيير والتلاعب مِنْ قبل مَنْ لا يرقُبُون وعيدَ ربهم، ولا يهمُّهُم حقُّ غيرهم؛ فيحتالون بالتطفيف من دون أن يشعر بهم أحدٌ في الغالب؛ وذلك بتغيير طريقة عمل الآلة الموزون بها! لذلك أكَّد الحقُّ ﷻ تحرِّي الدِّقة البالغة في الميزان خاصَّة[٤٣]!

ويكون التَّطفيف في معاملات البيع والشراء بالزِّيادة في حقِّ طرفٍ، يُقابلها النُّقصان المكافئ والمساوي من حقِّ الطَّرف الآخر، ومعنى ذلك أنَّ من زاد لنفسه عن عمدٍ من حقِّ المقابل مقدار كيلوجرامٍ مثلًا أو أقلَّ أو أكثر في الشيء الموزون، أو رُبُعَ مترٍ مثلًا في الشيء المقيس؛ بائعًا كان أو مشتريًا؛ فقد نقص ذلك المقدارَ المطفَّف من حقِّ صاحبه، ومن نقص ذلك المقدارَ من حقِّ صاحبه؛ بائعًا كان أو مشتريًا؛ فقد زاده لنفسه، فمن جعل الخسران والنقص على مقابله، والاستيفاء والزيادة لنفسه عن عمدٍ وإصرارٍ وخلسةٍ أو ٱستغفالٍ؛ فهو مُطفِّف؛ إيجابًا كان ذلك التطفيف زائدًا مُضافًا على حقِّه المستوفَى، أو سلبًا مُنتَقَصًا من حقِّ المقابل المجتزأ؛ فحالُ المطفِّف عند ٱستيفاء الحقِّ والانتصاف لنفسه من غيره غيرُ حالِهِ عند إيفائه لغيره وإنصافه من نفسه! ومن لم يرضَ لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه؛ فليس بمنصفٍ، والَّذي يرى عيبَ النَّاس ولا يرى عيبَ نفسه؛ فهو من هذه الجملة[٤٤]!

وإذا كان هذا الإنذارُ المغلَّظ بالويل لمن يظلم بالاختلاس في الشيء الطَّفيف، ويرضى بالقليل من السُّحْت،

فما بالُك بمن يظلم من الكُلِّ، ويأكل أموال الناس أكلًا لمًا بلا كيلٍ ولا وزنٍ، وكيف بحال من يسرقها ويختلسها جملةً، ويأخذها قسرًا وعنوةً بالحرابة وغيرها من ألوان الغلبة والسَّلْب، ويبخس الناس أشياءهم؛ ٱعتمادًا على قوة الملك أو نفوذ السلطان، أو باستعمال ألوان الحيل المختلفة؟! إنَّه – بلا شكٍّ – أولى بهذا الوعيد الشديد من مُطفِّفي المكيال والميزان، ولا جرم أنه لا يُحسَبُ إلَّا في عِدَادِ الجاحدين المنكرين ليوم الدين؛ وإنْ زعم بلسانه ألف مرَّةٍ أنه من المؤمنين المخبتين! والآية مناديةٌ على ذميم أفعالهم، ناعيةٌ عليهم بشنيع أحوالهم، مبصِّرة لهم أنهم إنْ عموا وأفلتوا من قضاء الأرض يومًا أو يومين أو دهرًا؛ فلن يعموا ولن يُفلتوا من قضاء السماء أبدًا[٤٥].

المطلب السابع: آيات الأولى في بيان عاقبة المجرمين

وقال ﷻ في بيان حال من لم يكونوا يرجون لله وقارًا: (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) [الأنبياء: ٩٧]، ذكرت الآيةُ الكريمةُ مُقدِّمةً من مُقدِّمات قيام السَّاعة، وهذا الشُّخُوص والدُّعاء بالويل والثبور الَّذي سيكون فيها من الكافرين لمجرَّد ٱقترابه ولما يقعْ، يقولون وهم شاخصو البصر لا يَطْرِفون: يا هلاكنا، هذا أوانك؛ فاحضر؛ فإنَّنا قد كُنَّا في الدُّنيا في غفلةٍ تامَّةٍ عن هذا اليوم الَّذي أُحضرنا فيه للحساب، فكيف لو وقع فعلًا[٤٦]؟!

وقال ﷻ في وصف آخر مُروِّعٍ لهم: (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) [الأنبياء: ٤٦]؛ أي: طرفٌ يسيرٌ، ومَسٌّ خفيفٌ، وخطرةٌ عابرةٌ، وٱتصالٌ هينٌ بظاهر الجسم، لا تغلغلٌ عميقٌ في داخله وٱطِّلاعٌ بليغٌ على ما فيه من فؤادٍ وغيره! فهو ما دُونَ النُّفُوذ، ويكفي فيه إيصال ما دون اللمس، و(النَّفْحَة): الدَّفعة اليسيرة من الشيء الَّتي دون مُعظمه، يُقالُ: (نفحه نفحةً بالسَّيف)؛ إذا ضربه بطرفه ضربةً خفيفةً، و(نفحت الدَّابَّةُ ولدها برِجْلها)؛ إذا مسَّته بطرف رجلها مسًّا خفيفًا غير مُؤذٍ، ورَمحَته بحدِّ حافرها رَمْحًا يسيرًا غير بالغٍ. وهي أيضًا: المرَّة من الرَّضخ في العطية؛ وهو الشيء اليسير، يقال: (نفحه

بشيء)؛ إذا أعطاه عطاءً نزيرًا قليلًا! وهي أيضًا: الرِّيح اللَّيِّنة الَّتي تحمل إليك آثار الأشياء دون حقيقتها؛ كأنْ تحمل لك الرِّيحُ رائحة الوُرُود مثلًا؛ فهي لا تحمل لك الوُرُود نفسها؛ إنَّما تحمل رائحتها، وتظلُّ الوُرُودُ كما هي. فأصل (النَّفح): هُبُوبُ رائحة الطِّيب، وأصل (النَّفح من الريح): اللَّيِّن! فكذلك هذه النَّفْحَةُ والمسَّة من العذاب؛ إنَّها مُجرَّد رائحة عذابٍ وطرف ليِّنٌ منه إذا ما قيسَ بحقيقته وكُلِّيَّته؛ كما نقول: (نَفْحُ النَّار الَّذي نشعُرُ به ونحن بعيدون عنها)[٤٧]!

(نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ)، و(النفحة من العذاب) ليست هي العذابَ الموعودَ؛ بَلْ أهونُ شيء فيه وأقلُّه، وهي بالنسبة لذلك العذاب المرتقب أشبهُ بالرَّحمة واللُّطف؛ إذْ لا وجه للمقارنة بينها في مرورها وخفتها وبينه في هوله وعظمته وإقامته؛ ومِنْ ثم عبَّر عن ذلك الأُنمُوذج المصغَّر بـ(النَّفْحَةِ) الَّتي يغلب ٱستعمالها في الخير والرحمة؛ لأنها بالمقارنة إلى حقيقة العذاب كالخير واللُّطف والنعمة فعلًا[٤٨]!

و(النَّفْحَةُ): ٱسم مرَّة؛ أي: تدُلُّ على حدوثها مرَّةً واحدةً؛ كما تقول: (جلس جَلْسَةً)؛ أي: مرَّةً واحدةً، وهذا دليلٌ على التقليل! فـ(مَسَّتْهُمْ) تقليلٌ بإسناد المسِّ إليها دون أيِّ فعلٍ آخر، و(نَفْحَةٌ) تقليلٌ كذلك، وكونها مرَّةً واحدةً تقليلٌ آخرُ، وتنكير تلك النفحة مبالغةٌ رابعةٌ في ذلك التقليل؛ لما يفيده من تحقير المقدار؛ ومع ذلك تراهم - حِينَ يَسِمُهُمُ الجبار أقلَّ العذاب يوم القيامة قبلَ أنْ يسومهم أشدَّهُ وأسوأهُ - يَضِجُّون ويجأرون من الضعف الظاهر والمشقة المتناهية والجزع البالغ لأخفِّ مَسَّةٍ عابرةٍ وأدنى أثرٍ بادٍ من عذاب ربك؛ فتبدو عليهم سُرعةُ التَّأثُّر من مجيء نَفَسِ العذاب إثر بيان عدم تأثرهم من مجيء خبره، فما ظنُّكَ بمجيء عذابٍ واقعٍ يدفع قليلُهُ ويُلجِئُ يسيرُهُ - ولا يسيرَ مِنْ عذابه - مَنْ حَلَّ به إلى تغيُّر الحال بالخضوع والإذعان والإقرار والاعتراف باستحقاقه إيَّاهُ بسبب ظلمه السابق، وإلى إنشاء تعجُّبه من سوء حال نفسه ودعائه عليها بالويل والثبور؟! ولكن حيث لا يُجدي هذا الاعترافُ ولا ذاك الدعاء عنه شيئًا؛ فلقد سبق في سياق السورة

مشهدُ القُرى الَّتي أخذها بأس الله ﷻ؛ فنادى أهلها نداءً واحدًا: (وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) [الأنبياء: ١٤– ١٥]! فهو الاعتراف بعد فوات الأوان، وكان خيرٌ منهُ أن يسمعوا نذير الوحي وفي الوقت مُتَّسعٌ، قبل أن تمسهم تلك النفحة المؤلمة من العذاب ولما يروا العذابَ الحقيقيَّ بعدُ! وما بالك إذا نزل بهم العذابُ المعدُّ لهم على حقيقته جملةً واحدةً لا نفحةً عابرةً منهُ، وهو عذاب أبديٌّ لا يعلم كُنهه، ولا يُدرك حقيقة إيلامه إلَّا من جعله مثوىً للمُتكبِّرين؟!

فالمقصود من الآية الكريمة: بيانُ سرعة تأثر هؤلاء المشركين بأقلِّ شيءٍ من العذاب الَّذي كانوا يستعجلونه، وأنهم إذا ما نزل بهم شيء منهُ؛ أُصيبوا بالهلع والجزع، وتنادوا بالويل والثبور والاعتراف بالظلم وسفه النفس وتجاوز الحدود[٤٩]!

وقيلَ بأنَّ هذا المسَّ وقع في الدُّنيا؛ تفسيرًا لـ(النفحة) الواردة في الآية بالجوع الَّذي نزل بمكة، وقد كان من حالهم إزاء تلك النفحة اليسيرة العابرة ما كان من إظهار التأثر والضعف والخور والاستكانة، والإقرار بالظلم، والدعاء على أنفسهم بالويل، فكيف لو كانت تلك النفحة في يومٍ عسرٍ يجعل الولدان شيبًا[٥٠]؟!

وقال ﷻ في بيان عاقبة المكذبين فلم تُغن عنهم قوتهم شيئًا: (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) [سبأ: ٤٥]، هذا تسلية للرَّسُول الحبيبﷺ، وتهديدٌ رهيبٌ للَّذين كذَّبوه؛ فالتسلية في أنَّ له أسوةً بالرُّسُل السابقين، والتهديد بتذكيرهم بالأُمم السَّالفة الَّتي كذَّبت رُسُلها وكيف عاقبهم الله على ذلك وكانوا أشدَّ قوَّة من قريشٍ، وأعظم سطوةً منهم؛ فهذا كقوله جلَّ جلاله: (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا) [الزخرف: ٨]؛ فلا تحزن – أيها الرَّسُولُ الكريم – فلا قيمة لتكذيب مُشركي قومك لك، ولا أعتداد بتشنيعهم؛ فلقد كذَّبت بالرُّسُل قبلهم أقوامٌ؛ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود... ولم يبلغوا من العلم والبيان والحجة والبرهان، ومن القُوَّة والتَّمكين والجاه والسُّلطان، ومن الظُّهور في البلاد

ووفرة الأموال والأولاد، ومن كثرة الرِّجال وشدَّة البأس في النِّزال، ومن طُول الأعمار وشدَّة الإعمار، ومن تواتر الآلاء وتوالي النِّعم معشار ما آتى الله السَّابقين من ذلك، وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تُؤيِّد هذا المعنى، منها قوله ﷻ: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [الروم: ٩]، وقوله ﷻ: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [الأحقاف: ٢٦]؛ فلم يُغن عنهم ٱستظهارهم بما كانوا به يستظهرون، ولم يدفع ذلك كلُّه عنهم عذاب الله ﷻ، ولم يرفع سخطه وأخذه الأليم الشديد، فما بالُ هؤلاء الَّذين يُعدُّون - بحسب مقاييس القُوى المادِّيَّة - ضعفاء وأراذل مع أُولئك الَّذين فُتنوا بما أوتوا وظنُّوا أنهم في عصمة ومنعة من أيِّ بلاءٍ في الدنيا، أو عذابٍ في الآخرة؛ حتى بلغ بهم الحال أن قالوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) [سبأ: ٣٥]؟! و(المعشار): هو العُشْر؛ بمعنى أنه جزءٌ من عشرة أجزاءٍ (١ , ٠)، ويُساوي عشرة في المائة (١٠٪)، وقيلَ: بلْ هو العَشِير الَّذي يُساوي عُشْر العُشْر؛ بمعنى أنه جزءٌ واحدٌ من مائة جزءٍ (١٪)، وقيلَ: بلْ هو عُشْر العَشِير؛ فيكون جزءًا واحدًا فقط من ألف جزءٍ (٠,٠٠١)؛ ((وهو الأظهرُ؛ لأنَّ المرادَ به المبالغةُ في التَّقليل))[٥١]!

أفلم تكن لهم عظةٌ وعبرةٌ فيمن تقدَّمهم من الأُمم الغابرة، الَّتي أُوتيتْ من ناصية العلم المادِّيِّ، وبلغتْ من السَّطوة والقُوَّة والبأس والغنى وملك البلاد والعباد أضعافًا كثيرة مما بلغه مُشركو قُريشٍ؛ فدمَّرهم الله ﷻ ودمَّر عليهم، وخضد شوكتهم، وحصد كُبراءهم، وكسر كبرياءهم، وأباد خضراءهم، وأنضب ماءهم، وأزال غناءهم لما كذَّبوا رُسُله، ولم تُغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، وما نفعهم محصولهم في الحفاظ على موصولهم، وحاق بهم ما

كانوا به يستهزئون؟! وهم يرون آثار هذه الأُمم البائدة والقرون الخالية وهم في طريقهم وأسفارهم وترحالهم وغُدُوِّهم ورواحهم (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ* وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الصافات: ١٣٧- ١٣٨]، فكيف وجدوا عقاب الله وعذابه ونكاله بمن كفر واستكبر، وكذَّب رسل الله، وأنَّى لهم الأمان بعد كلِّ ما عاينوه؟! (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) [الملك: ١٨]؛ أي: كيف كان إنكاري عليهم الشِّرك وتكذيب رُسُلي، وعُقُوبتي إيَّاهم؟! كان بهجومٍ مباغتٍ مُدَوٍّ، أبادهم واستأصلهم وجعلهم أثرًا بعد عين، فلو رأيتموهم يا أهل مكة؛ لرأيتم شيئًا عظيمًا وأمرًا فظيعًا! (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) [النمل: ٥٢]، (فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) [الأحقاف: ٢٥]، (فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا) [القصص: ٥٨]، وها نحن قد قصصنا عليكم شأنهم وما حلَّ بهم من المثلات، وعرَّفناكم مصائرهم ومصارعهم، وكشفنا لكم مآلاتهم، وأريناكم أطلالهم الشَّاخصة وآثارهم الباقية، وبتُّم تعرفون تلك الكيفيات جميعًا حقَّ المعرفة، أفلا تتَّعظون بهم، وترتدعون عما اقتحموا هم فيه من غير مُبالاةٍ، وتخافون سُوء العاقبة، وتحذرون أنْ يحلَّ بكم ما حلَّ بهم من العذاب والنَّكال والوبال؟! فعقابكم أولى وأيسر من عقاب الَّذين من قبلكم في مُتعارف النَّاس لا في مقياس قُدرتنا[٥٢]!

وقيلَ: المعنى: أنهم لم يبلغوا في شكر النِّعمة وجزاء المنَّة (مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ) من النِّعم والإحسان إليهم، أو المعنى: وما بلغ الماضون الَّذين من قبل هؤلاء معشار ما آتينا قومك يا مُحَمَّد من الآيات البينات، ومن العلم والمعرفة والحجة والبرهان؛ لأنك أنت أفصح الرُّسُل وسيِّدهم وخاتمهم، وكتابك أوضح الكتب وأبلغها وأعمقها، وشريعتك هي الناسخة والمهيمنة على الشَّرائع كافة، ثم أنكر على المتقدِّمين تكذيبهم ومرودهم، فإنكاره على هؤلاء من باب الأولى؛ لقيام الحجة عليهم أكثر[٥٣]!

وقال ﷺ في بيان عاقبة من يقابل أنعُمه بالتَّنكُّر والجحود: (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [النحل: ١١٢]، هذا مثلٌ صريحٌ ضربه الله ﷻ عبرةً للأُمم والبلاد، والجماعات، والقرية المضروب بها المثل: هي مكَّة، كانت بهذه الصفة الَّتي ذكر الله ﷻ، آمنةً من لهب نيران الحروب وغارات الأعداء، مُطمئنةً، مستقرَّةً، لا تُهاجُ، وليس فيها مخاوف ولا مُشكلاتٌ أمنيةٌ أو اقتصاديةٌ، ترفُلُ برغد العيش، ويأتيها رزقها هنيئًا، سهلًا، رخيًا، واسعًا، من سائر بلاد الأرض وشتَّى أصقاعها؛ فكفر أهلُها بأنعُم الله، وجحدوا بها؛ فعمَّهم الله ﷻ بالجوع والخوف، وبدَّلوا هم بأمنهم خوفًا، وبغناهم جوعًا وفقرًا، وبسُرُورهم ألمًا وحزنًا وحسرةً، وذاقوا مرارة العيش بعد السَّعة؛ بسبب أفعالهم المنكرة، وعبادتهم الأوثان، وتنكُّرهم للقُرآن والشَّرع والهداية!

ومن أتمِّ النِّعم الإلهية وأكرمها عليهم: أنه جاءهم رَسُولٌ أمينٌ كريمٌ من جنسهم: عربيٌّ، قُرشيٌّ، هاشميٌّ؛ فكذَّبوه فيما أخبرهم به من أنه رَسُولٌ إليهم، مُبلِّغٌ عن ربِّه بأنْ يعبُدُوهُ ويُطيعُوهُ، ويشكُرُوهُ على تمام النِّعمة؛ فجاءهم العذاب بسبب ظُلمهم ومكرهم بآلائه! لقد أصابتهم السِّنون؛ أي: المَحْل والقَحْط حتَّى جَهَدُوا، وتعرَّضوا للخوف، وهاجمتهم سرايا رَسُول اللهﷺ؛ ذلك كُلُّهُ بسبب الكُفر والتَّكذيب؛ جَزَاءَ ظُلمهم، وجزاءً مُقدَّمًا لسُوء صنيعهم!

وإذا كانت مكَّة هي الَّتي ضُربتْ للنَّاس مثلًا؛ فإنما ضُربتْ لغيرها مما يأتي بعدها؛ ليحذر أهلُها أن يقعوا فيما وقعتْ هي فيه! والراجح أنه قُصد بذلك قريةٌ غيرُ مُعيَّنة، جُعلت مثلًا؛ فغيرُ مكَّة مثلُها، ومكَّة كغيرها من الأُمم الكافرة بالنِّعم، المتنكِّرة لها؛ فهو مثلٌ وعبرةٌ لكلِّ قرية يشملها الوصفُ المرفق، وجاء الكلام على معنى التَّحذير لأهلها ولغيرها من القُرى في شتى الأعصار والأمصار إلى يوم القيامة!

والهدف السَّامي من ضرب هذا المثل الَّذي أرشدتْ إليه الآيةُ الكريمةُ هو وجوب الإيمان بالله ﷻ وبالرُّسُل عليهم السلام، والتَّوجُّه نحو عبادة الله وحده، وشكره على نِعَمِهِ وآلائه الكثيرة، والمعرفة الثابتة بأنَّ العذاب الإلهيَّ لاحقٌ بكلِّ من كفر

بالله وعصاه، وجحد نِعَمَهُ السَّابغة عليه! وهذا تنبيهٌ وإنذارٌ ووعيدٌ لأهل كلِّ قرية ٱتصفوا بالظُّلم؛ أي: بالكُفر والعصيان؛ إذْ لا ظُلم أشَدُّ من ظُلم الكفر والمعصية في حقِّ الله ﷻ، والعذابُ الإلهيُّ من جنس العمل؛ سواءٌ عُجِّل لأهله ومُستحقِّيه في الدُّنيا، أم أُرْجِئَ إلى الآخرة؛ فإنَّ أهل هذه القرية لما بَطِرُوا النِّعمة؛ بُدِّلوا بنقيضها؛ وهو محقُها وسَلْبُها، ووقعوا في شدَّة الجوع بعد الشِّبَع، وفي الخوف والتَّرقُّب والهلع بعد الأمن والطُّمَأْنينة، وفي البلاء بعد العافية، وفي ٱنعدام موارد العيش بعد الكفاية!

ويختلف نوع هذا العذاب المذكور بحسب تحديد المراد بالقرية الَّتي جُعلتْ مثلًا، فإنْ كان المراد بها مكَّة؛ فالعذابُ الَّذي لحقها هو الجوع والقتل ببدرٍ، والعيش بقلقٍ بسبب ظُهُور الإسلام وقُوَّة شوكته، وتأهُّب المسلمين لغزو مكة فاتحين! وإنْ كان المراد بالقرية أيَّ قريةٍ أو مدينةٍ قديمةٍ أو حديثةٍ غير مُعيَّنة؛ فالعذابُ الَّذي حاق أو سيحيقُ بها هو التَّبار والدَّمار والاستئصال وتخريب العُمران وغير ذلك؛ كسبأ وعاد وثمود ومدين وسدوم، وكالمدن الَّتي تتعرَّض اليوم لأدهى أنواع الكوارث من الأعاصير والزلازل والفيضانات والبراكين والأوبئة والحروب الخارجية والاحتراب الدَّاخليِّ والمجاعة...[٥٤]!

ومن المعلوم بأنَّ لفظ (الأنعُمُ) جمع قلَّةٍ؛ فكان المعنى: أنَّ أهل تلك القرية كفرتْ بأنواعٍ قليلةٍ من النِّعم؛ فعذَّبها الله ﷻ، والمقصود بذلك التَّنبيهُ بالأدنى على الأعلى؛ بمعنى أنَّ كُفران النِّعم القليلة أوجب العذابَ؛ فكُفرانُ النِّعم الكثيرة أولى بإيجابه[٥٥]!

وقال ﷻ في بيان المآل الوبيل للظالمين: (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام: ٤٥]، (الدَّابر): الأصْلُ الثَّابت، ومنهُ يُقالُ في الدُّعاء بالشَّرِّ: (قطع الله دابر فلانٍ!)؛ أي: بتَّه من أصله! أو هو التَّابع وآخِرُ كُلِّ شيءٍ الَّذي يأتي من خلفه؛ كالولد للوالد، وكالتَّابع للقافلة والقوم؛ وهو الغابر الَّذي يتخلَّف في آخِرِهم ويمشي من ورائهم، يُقالُ: (دَبَر فُلانٌ القومَ يدبُرُهم دَبْرًا ودُبُورًا)؛ إذا تبعهم من خلفهم، وجاء على أدبارهم فكان آخِرَهم، ومنهُ أيضًا قولهم:

(دبر السَّهْمُ الهدفَ)؛ أي: تجاوزه وسقط خلفه، مأخوذٌ من (الدُّبُر)؛ وهو الوراء، قال ﷻ: (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ) [الحجر: ٦٥]، وبه سُمِّي العضو المعروف، ومنهُ الحديث في بيان علامات المنافقين: ((... ولا يأتون الصلاة إلَّا دُبُرًا))[٥٦]؛ أي: في آخِرِ وقتها! فـ(دابر القوم): آخِرُ واحدٍ منهم، ومنهُ: (التَّدبير)؛ لأنه إحكام عواقب الأُمُور بعد إجالة النَّظر فيها، فإذا قُطع هذا؛ فأوائلُهُم بالقطع والاستئصال أولى؛ فإنَّ ذهاب آخِرِ الشَّيء يستلزم ذهاب ما قبله، وإنَّه لا يُوصل للآخِرِ إلَّا بعد ٱجتياز الأول؛ لأنَّ المستأصل يبدأُ بما يليه، ويذهب يستأصل إلى أنْ يبلُغ آخِرَهُ؛ وهو دابِرُهُ! وهذا مما جرى مجرى المثل[٥٧]، وقد تكرَّر في القُرآن الحكيم مرارًا؛ كقوله ﷻ: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) [الحجر: ٦٦]!

والمعنى: ٱجتثَّ أصلهم، وكسحهم عن بكرة أبيهم، وٱستأصل شأفتهم بالكُلِّيَّة، وأبادهم عن آخِرِهم، وأتى عليهم وأهلكهم كلَّهم جميعًا بعذاب عامٍّ وشاملٍ، ولم يُبقِ منهم باقيةً أو أحدًا يتوالد؛ فقطع نسلهم، ومحا خبرهم وذكرهم، وجعلهم أثرًا بعد عين؛ ففي التَّعبير الحكيم كنايةٌ بليغةٌ في نقل المشهد الَّذي تم فيه إنهاءُ آخر فرصة لهم في الحياة على هذه الأرض[٥٨]!

و((لما كان من عادة الغالب من أهل الدُّنيا أنْ يفوته آخِرُ الجيوش وشُذَّابهم؛ لملل أصحابه من الطَّلب، وضجرهم من النَّصب والتَّعب، وقُصُورهم عن الإحاطة بجميع الأرب؛ أخبر ﷻ أنَّ أخذه على غير ذلك، وأنَّ نيله للآخِرِ كنيله للأوَّل على حَدٍّ سواءٍ))[٥٩]!

فـ(قطعُ الدَّابر) إمَّا أنْ يكون باعتبار هلاك الأُصُول، أو باعتبار قطع الأتباع والفُرُوع، أو باعتبارهما معًا! ووضع المظهر الموصوف بالموصول (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا) موضع المضمر؛ فلم يقلْ (فقطع دابرهم)؛ للإشعار بسبب ذلك الاستئصال وبيان علَّة الحكم في الإهلاك، والدَّلالة على أنه كان لظُلمهم وكُفرهم وفُجُورهم وطُغيانهم لا لأيِّ سببٍ آخر، وأنه لا بُدَّ من زُهُوق الباطل وإنْ طال الزَّمانُ به، وظُهُور الحقِّ ليحلَّ محلَّه[٦٠]!

ثم جاء التذييل بحمد الله ﷻ:

(وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ) على إهلاكهم وما حلَّ بهم وجرى عليهم؛ لأنَّ إبادة الظَّلَمَة والعُصاة والمتمرِّدين، وإزالة الفساد بإزالة أهله من الأرض أمرٌ حسنٌ في نفسه، ونعمةٌ من الله جليلةٌ وجزيلةٌ تستحقُّ الحمد والشُّكران عليها؛ من حيثُ إنه ٱستأصل شأفتهم، وقطع دابرهم، ولم يتركْ منهم على الأرض ديَّارًا؛ فدفع شرِّهم المستطير عن المؤمنين ومُعافاتهم مما ٱبتُلي به أُولئك، وتطهير الأرض من شُؤم عقائدهم وأدناسهم ووبائهم الوبيل الَّذي يتهدَّدها، وتخليص أهلها ووقايتهم من مغبة إسرافهم وجرائر أعمالهم الوبيئة الفاسدة الموجبة لنُزُول العذاب؛ حتَّى لا يدوم الفساد ويستفحل ويَنشَب، ويذوب إزاءه عُنصرُ الخير ويتلاشى معدنه وينضب، مع ما فيها من التَّعريض بالفضل والامتنان بإعزاز راية الدِّين وإعلاء كلمة الحقِّ الَّتي نطقتْ بها رُسُلهم عليهم السلام، وذلك كلُّه جارٍ مجرى النِّعمة العظيمة على الرُّسُل المكذَّبين والمؤمنين المضطهدين؛ لكفايتهم شرَّ الظالمين، وإنجاز وعده على لسانهم بهلاك المكذبين؛ فصَدَقَهم الوعدَ ولم يخذلهم! وعلى أُولئك الفانين الهالكين أنفسهم كذلك؛ كيلا يزيدوا كُفرًا إلى كُفرهم وعنادًا إلى عنادهم؛ فيستوجبوا مزيدًا من السَّخَط، ويزدادوا عذابًا أليمًا وعقابًا وخيمًا[٦١]!

أو أنَّ الحمد مُستَحَقٌّ له ﷻ على ما أنعم عليهم قبل ذلك؛ بأنْ كلَّفهم وأزال عنهم الأعذار والعلل، وبعث فيهم الرُّسُل والأنبياء، ودبَّرهم بكلِّ الوُجُوه الممكنة في التَّدبير الحسن؛ بأنْ أخذهم أوَّلًا بالبأساء والضَّرَّاء، ولاطفهم في الإصابة بالشَّرِّ واللَّأواء لينتبهوا ويزدجروا، وأمهلهم ومنحهم الوقت الكافي ليكُفُّوا ويعودوا إلى حظيرة الإيمان والإذعان، ثم نقلهم إلى بُوح الآلاء والسَّرَّاء والنَّعماء وضُرُوب التَّقلُّب والتَّرفُّه والرَّخاء ليعودوا ويشكروا؛ إلَّا أنهم لم يزدادوا إلَّا ٱنهماكًا في الغيِّ والكُفر والضَّلال حتَّى وجب عليهم العذابُ بعد الإنذار والإعذار؛ فأفناهم، وطهَّر وجهَ الأرض من بقايا أدناسهم وأرجاسهم، ومظاهر بطرهم وأشرهم، وألوان شرِّهم وشركهم وتأبِّيهم وكبريائهم!

وفيه إيذانٌ وتعليمٌ وتلقينٌ

للرَّسُول وللمؤمنين بوُجُوب الحمد عند هلاك كلِّ من لم يحمدِ الله على آلائه من الظَّلَمَة والكَفَرَة والفَجَرَة والجاحدين؛ فإنَّ ذلك من مظاهر العزة والنَّصر لعباد الله، ومن جملة آلاء الله الَّتي لا ينتبه إليها كثير من النَّاس! وأنه ينبغي أنْ يُختم به كُلُّ فعلٍ وكُلُّ مقالٍ؛ إذْ هو المحمودُ على كلِّ حالٍ، لا إله غيرُهُ، ولا خير إلَّا خيرُهُ، ولا ربَّ سواه! فكان قوله ﷻ: (وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ) كِفَاءً لتلك النِّعم الكثيرة المتقدِّمة!

ووصف نفسه في ختام المشهد بـ(رَبِّ الْعَالَمِينَ)؛ لأنَّ مُقتضى رُبُوبية العالم إهلاكُ الظَّلَمَة وعدمُ إهمالهم وإنْ تمَّ إمهالُهم(٦٢)!

وهكذا يأتي القرآنُ الحكيمُ بالنِّقم على هيئة النِّعم؛ فهي نقمٌ بالنِّسبة للكافرين وعليهم، وهي نعمٌ للمؤمنين؛ ذلك أنَّ التَّهويل في أمر العذاب يجعل النَّاس ترتهب وتُحجم وتتوقَّف أو تتراجع القهقرى، وهذا الوعيد نعمةٌ من الله ﷻ من حيثُ إنه رادعٌ بليغٌ عن الإقدام نحو الشَّرِّ والاقتحام فيه؛ فمن لُطفه ﷻ بعباده أنْ يأخذهم (بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ* فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [الأنعام: ٤٢- ٤٤]! ولأنَّ في تذكير الله النَّاسَ إيماءً إلى ترقُّب الأُسوة بما حصل لمن قبلهم، وإلى انتظار نصر الله لهم كما نصر المؤمنين من قبلهم! وحين يتجلَّى الحقُّ بنعمه على خلقه ويقطع دابر الظالمين؛ يقول المؤمنون حينها وفي كلِّ حينٍ: (الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ) [غافر: ٦٥].

خاتمة

وبعد هذه الرِّحلة السَّائحة في رِحَابِ بعض آيات الأَوْلَى في كتاب الله ﷻ؛ يطيب لنا أنْ نُسَجِّلَ أهمَّ النَّتائج الَّتي توصَّلنا إليها فيها؛ وهي كالآتي:

* لقد تفنَّن القرآن الكريم في عرض آياته المتضمنة أحكامه، ولم يخرج شيءٌ من ذلك عن أساليب العرب وسَنَنهم في الخطاب.
* ففي باب التفضل والإنعام؛ ذكَّر الله ﷻ عباده بالنِّعم المُسداة، وأنهم عاجزون عن عدِّ نعمة واحدة من تلك النِّعم الكثيرة؛

بله إحصائها مجتمعة، هذا في الدنيا، أما في الآخرة؛ فوصف لنا عرض الجنة الفسيحة التي أعدَّها للمتقين من عباده، ودعاهم إلى التسابق لحيازتها، ووعدهم بتكفير سيئات أعمالهم وجزائهم بالأحسن الجزاء الأوفى، وتعرَّض لوصف بطائن فرشها، وبيان نفاستها، وأنَّ ما وراءها أنفسُ.

* وفي باب التوقير والإكرام؛ نوَّه ﷻ بالمكانة العلية للوالدين، ودعا الأبرار من الأبناء إلى إيفائهما حقَّهما من الخدمة والتوقير والإكرام، ونهى عن التَّعرُّض لهما بأدنى درجات الأذى القوليِّ؛ ليكون ذلك رادعًا لهم عما فوقه من ألوان الأذى؛ جزاء لهم على سابق إحسانهم لأولادهم في الصِّغر.

* وفي معرض بيان حال المؤمنين؛ ذكر لنا من بلغ بهم العجزُ الظاهرُ مبلغًا صاروا معه ينتظرون راحلة السفر من هذه الحياة؛ وإذا بالهبات والعطايا تأتيهم وتُغدق عليهم من حيث لم يحتسبوا، وأنهم متوفِّزون على الدوام لدرء كلِّ ما يمسُّ صلتهم بربهم، أو يخدش علاقتهم الواصلة معه بحبالٍ وثيقة.

* وفي مجال تصحيح المفاهيم المغلوطة؛ بيَّن لنا ﷻ أنَّ العين الفانية لا يُمكنها رؤية الباقي إلا إذا اتَّسمت بالخلود والبقاء؛ لأنه لا يُطيق ذلك ولا يقدر عليه من هو أشدُّ من الإنسان وأصلب! وأنَّ الله ﷻ لا يُحاسب يوم القيامة بالقائمة والجملة؛ بل يكون الحساب فرديًا دقيقًا، لا حيف فيه ولا ظلم ولا هضم، ولا يستطيع إنسانٌ يومذاك إعانة إنسان أو حملَ شيء من وزره نيابة عنه!

* وفي باب التَّعجيز والتَّحدِّي؛ تعرَّض ﷻ إلى أنَّ هذا القرآن مُعجزٌ بكلِّ المقاييس، وأنَّ التَّحدِّي مفتوحٌ للأجيال كافة للإتيان بمثله، وأن التَّبجُّح بغير الواقع لا ميزان له في النقد العلميِّ المُنصف! وأنَّ الشركاء والأنداد الذين يدعوهم السفهاء من الناس لا يملكون في هذه الحياة أتفه الأشياء وأكثرها نزارة!

* وفي باب الزجر والوعيد؛ يُبيِّن لنا ﷻ أنه لا هوادة مع الذين يتقوَّلون عليه، وينسبون إليه أقوالًا من أنفسهم، وأنَّ رسوله الأمين صادقٌ في كلِّ ما بلَّغه عن ربه! وأنَّ الويل كلَّ الويل لمن يختلسون شيئًا من حقوق الناس الثابتة عن طريق

المكيال أو الميزان أو ما ضارعهما من ألوان سلب الحقوق.

* وفي معرض بيان عاقبة المجرمين والظالمين؛ يُبيِّن ﷻ حجم الصَّدمة ومقدار الدَّهشة البادية عليهم بمُجرَّد دُنُوِّ أجلهم واقتراب حسابهم، وأنهم سينادون على أنفسهم بالويل والثبور بمُجرَّد مسِّ العذاب دون إصابة حقيقته! ولن يدفع عنهم العذاب آنئذٍ شيءٌ لم يدفع عمن كان أقوى منهم وأكثر أموالًا وأولادًا وآثارًا وبطشًا، وأنَّ كفران النِّعم مُؤذنٌ بنزول السخط وحُلُول العذاب والاستئصال وقطع الدابر ومحو الأثر.

* وأخيرًا؛ فإنَّ في القرآن الحلولَ الناجعة لكلِّ المشاكل الفكرية والاجتماعية والمادية التي ترزح تحت وطأتها البشرية، وعانت وتعاني من ويلاتها، وأنه لا نجاح في هذه الدار، ولا فلاح في الدار الأُخرى إلا بالرجوع إلى هداياته والاحتكام إليه وتحكيمه في سائر مفاصل الحياة.

الهوامش:

١- يُنظرُ: بحر العُلُوم (٢/ ٢٤٥)، ومعالم التنزيل (٤/ ٣٥٤)، والكشَّاف (٢/ ٥٥٧)، والتَّفسير المنير (١٣/ ٢٥٦).

٢- يُنظرُ: مفاتيح الغيب (١٩/ ٩٩)، والسِّراج المنير (٢/ ١٨٣)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢١٠٨).

٣- يُنظرُ: التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٢- ٣٣)، وزاد المسير (٢/ ٥١٤)، والتَّفسير الوسيط، للزحيلي (٢/ ١٢٠١)، وأيسر التفاسير (٣/ ٦٠).

٤- يُنظرُ: تفسير القرآن العظيم، للطبراني (٤/ ٦٣)، والهداية إلى بُلُوغ النِّهاية (٥/ ٣٨٢١- ٣٨٢٢)، والمحرر الوجيز (٣/ ٣٤٠)، والجامع لأحكام القُرآن (٩/ ٣٦٧)، والبحر المحيط (٦/ ٤٤١)، ورُوحُ البيان (٤/ ٢٨٠)، ورُوحُ المعاني (٧/ ٢١٣)، والتَّحرير والتَّنوير (١٣/ ٢٣٦)، والتَّفسير القُرآني للقُرآن (٧/ ١٨٧).

٥- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان/ كتاب البرِّ والإحسان (باب الصِّدق والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر)، رقم: (٣٦١)، (٢/ ٧٧)، ويُنظرُ: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ المهاجرون من الصَّحابة (أبو ذرٍّ الغفاريِّ (رضي الله عنه) - مواعظه)، (١/ ١٦٦- ١٦٧)، وجامع الأحاديث/ الكُنى من قسم الأفعال (مسند أبي ذرٍّ (رضي الله عنه))، رقم: (٤١٦٦٩)، (٣٨/ ٣٥٥)، وكنز العمال/ حرف الميم (كتاب المواعظ والرقائق والخطب والحكم من قسم الأفعال - فصل في جامع المواعظ والخطب/ خطب النبي ﷺ ومواعظه)، رقم: (٤٤١٥٨)، (١٦/ ١٣٢).

٦- يُنظرُ: الشعراوي، الخواطر (٢/ ١١٠٤- ١١٠٧).

٧- يُنظرُ: الهِدَاية إلى بُلُوغ النِّهاية (١١/ ٧٣٢٧)، ولُبابُ التَّأويل (٤/ ٢٥١)، واللُّباب في عُلُوم الكتاب (١٨/ ٤٨٩- ٤٩٠)، والبحر المديد (٧/ ٣٢٣)، ورُوحُ المعاني (١٤/ ١٨٥)، وتفسير الشعراوي (٢/ ١١٠٤- ١١٠٧)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (١٤/ ٢٢١- ٢٢٢).

٨- يُنظرُ: بحر العُلُوم (٣/ ٤٠٨)، والنُّكت والعُيُونُ (٥/ ٤٨١)، والكشَّاف (١/ ٤١٥)، و(٤/ ٤٧٩)، ومفاتيح الغيب (٩/ ٣٦٥- ٣٦٦)، و(٢٩/ ٤٦٥)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ١٨٩)، والجواهر الحِسَان (٥/ ٣٩١)، ونظم الدُّرَر (١٩/ ٢٩٢)، وإرشاد العقل السَّليم (٨/ ٢١١)، ومحاسن التَّأويل (٢/ ٤١٢)، والتَّفسير الوسيط، للزحيلي (٣/ ٢٥٩٨)، والتَّفسير المُنير (٢٧/ ٣٢٠، و٣٢٢).

٩- يُنظرُ: الحيوان (٥/ ١٣٢)، والكامل في

اللغة والأدب (٣/ ٩٨)، وغرر الخصائص الواضحة/ ص٤٦١.

١٠- يُنظرُ: معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٢٨)، ومعالم التَّنزيل (٨/ ٤٠)، والمُحرَّر الوجيز (٥/ ٢٦٧)، والجامع لأحكام القُرآن (١٧/ ٢٥٦)، ومَدَارك التَّنزيل (٣/ ٤٣٩)، والبحر المُحيط (١٠/ ١١١)، والتَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٤٠٨)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (١٤/ ٧٨٠)، والتَّفسير المُنير (٢٧/ ٣٢٠، و٣٢٢).

١١- في ظِلَالِ القُرآن (٦/ ٣٤٩٢).

١٢- يُنظرُ: الكَشْف والبيان (٩/ ١٩٠)، ومفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٧٣- ٣٧٤)، ولُبابُ التَّأويل (٤/ ٢٣٠)، والتَّفسير القَيِّم (١/ ٥٠١)، وفتح القدير (٥/ ١٦٩)، ومحاسن التَّأويل (٩/ ١١٣)، والتَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٢٦٨)، والتَّفسير المُنير (٢٧/ ٢٢٥)، والتَّفسير الواضح (٣/ ٥٨٨).

١٣- يُنظرُ: زاد المسير (٤/ ٢١٤)، وتفسير القُرآن العظيم (٧/ ٥٠٣- ٥٠٤)، وغرائب القُرآن ورغائب الفُرقان (٢/ ٢٥٩)، و(٦/ ٢٣٢)، ونظم الدُّرَر (١٩/ ١٨٣)، وتفسير المراغيِّ (٢٧/ ١٢٥)، وفي ظِلَالِ القُرآن (٦/ ٣٤٥٧)، وتيسير الكريم الرَّحمن (١/ ٨٣١).

١٤- يُنظرُ: نظم الدُّرَر (١٦/ ٥٠٧)، والفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢/ ٢٤٧)، وفتح القدير (٤/ ٥٣١)، والتَّفسير المَظْهَرِيُّ (٨/ ٢١٥)، والتَّفسير المُنير (٢٤/ ٨).

١٥- يُنظرُ: رُوحُ المعاني (١٢/ ٢٦٠)، والتَّفسير الواضح (٣/ ٢٧٠)، وصفوة التَّفاسير (٣/ ٧٣).

١٦- يُنظرُ: الجامع لأحكام القُرآن (١٥/ ٢٥٧)، وأنوار التَّنزيل وأسْرَار التَّأويل (٥/ ٤٢)، ورُوحُ البيان (٨/ ١٠٩)، والتَّفسير الوسيط، للزحيلي (٣/ ٢٢٣٨).

١٧- يُنظرُ: جامع الأحاديث/ حرف اللام من قسم الأقوال، رقم: (١٩٥٨٥)، (١٨/ ٣٤٧)، وكنز العمال/ حرف النون من قسم الأقوال - كتاب النِّكاح (الباب الثامن: في برِّ الوالدين)، رقم: (٤٥٥٢٨)، (١٦/ ٤٧٦)، وموسوعة أطراف الحديث (١/ ٢٤٥٨٤٠).

١٨- ومِنْ ثم قال خليلُ الرحمن إبراهيم **(عليه السلام)** لقومه: (أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) [الأنبياء: ٦٧]؛ أي: رَفْضٌ لكم ولهذه الأصنام البائسة والحسيرة معكم! وقال الابنُ المنكرُ البعثَ والنشورَ للمثولِ بين يدي المولى الحسيب للحسابِ والجزاءِ، قال لوالديه: (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) [الأحقاف: ١٧]؛ أي: رَفْضٌ لكما ولما تعدانني به من وجود حياةٍ أخرى بعد الموت، ندين فيها بما أسلفنا من عملٍ!

١٩- وهذا ما أطلق عليه الأُصُوليون مصطلح:

«القياس الجلي»، أو «القياس في معنى الأصل»؛ وهو إلحاقُ المسكوت عنه بالمنطوق به بنفي الفارق بينهما؛ لعدم وجود الفرق المؤثر في الحكم أساسًا، أو هو ما كانت العلة الجامعة فيه بين الأصل والفرع منصوصةً، أو مجمعًا عليها، وكان الفارقُ المؤثر في الحكم بين المسكوت عنه والمنطوق به أو بين الأصل والفرع مقطوعًا بنفي تأثيره؛ فلا يُحتاجُ فيه إلى وصفٍ جامعٍ بين الأصل والفرع؛ بل يقال فيه: لم يوجد بين هذا المنطوق به وهذا المسكوت عنه فرقٌ فيه يؤثر في الحكم ألبتة؛ فهو أولى منه بالحكم؛ لأنَّ معناه معروفٌ من ظاهر النص بغير استدلال، ولا يجوز أن يرد التعبد فيه بخلاف أصله؛ كقوله ﷻ: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) [الإسراء: ٢٣]؛ فالضرب المسكوت عنه أولى بالحكم الَّذي هو التحريم من التأفُّف والتبرم المنطوق به، مع القطع بنفي الفارق؛ وبِذَا دلَّ تحريمُ التأفُّف المنطوق به ببديهة النص على النهي وتحريم التعنيف والشتم والضرب المسكوت عنها؛ لعلة كفِّ الأذى عنها؛ فلا يجوز أن يحرم التأفُّف ويحل الضرب والشتم، ولا يشك عاقل في ذلك أدنى شكٍّ؛ فصار تحريم الضرب والشتم وسائر ضروب الإيذاء والتعنيف الأخرى مأخوذًا من تحريم التأفُّف قياسًا بطريق الأولى؛ ذلك أنَّ الشرع إذا نصَّ على حكمٍ في صورة وسكت عن حكمٍ في صورة أخرى، فإذا أردنا إلحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حُكْمُهُا والمنصوص عليها؛ فهذا على أضْرُبٍ، أولها وأولاها وأقربها إلى الفهم: أن يكون ثبوت ذلك الحكم في محلِّ السكوت أولى وأظهر من ثبوته في محل الذِّكر؛ كالَّذي ورد في النص الكريم أعلاه والنُّصُوص الَّتي سنُوردُها في أدناهُ؛ فإنَّ اللفظ إنما دلَّ على المنع من التأفُّف، والتعنيف والضرب أولى بالمنع من التأفُّف، والمقصود من هذا الكلام الكريم: المبالغة في تعظيم الوالدين وتوقيرهما؛ لقوله ﷻ بعد ذلك: (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا* وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [الإسراء: ٢٣– ٢٤]!

فدلالةُ هذا اللفظ على المنع من سائر أنواع الإيحاش والإيذاء والتكره والاستثقال دلالةٌ لفظيةٌ أو دلالةٌ مفهومةٌ بمقتضى القياس الجليِّ الَّذي لا يلتبس على عاقلٍ، ولا يُنكره إلَّا مُتأبٍّ أو مكابرٌ؛ لأنَّ أهل العُرف إذا قالوا: (لا تقل لفلان أُفٍّ)؛ عنوا به أنه لا يتعرضْ له بنوعٍ من أنواع الإيذاء والإيحاش مهما خفَّ وقلَّ، وجرى هذا مجرى قولهم: (فلانٌ لا يملك نقيرًا ولا قطميرًا) في أنه بحسب العُرف يدُلُّ على أنه لا يملك شيئًا أصلًا! فـ(القياس الجلي): هو المُتلقَّى من فحوى الخطاب بالنص نفسه [يُنظرُ: مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٢٥– ٣٢٦)، والإحكام في أصول الأحكام، للآمدي (٤/

٣)، والجامع لأحكام القُرآن (١٠/ ٢٤٢- ٢٤٣)، والتَّسهيل لعُلُوم التَّنزيل (١/ ٤٤٤)، وأضواء البيان (٣/ ١٤٧- ١٤٨)، و(٤/ ١٧٥- ١٧٦)، وبستان الأحبار مختصر نيل الأوطار (٢/ ٦١٧)]!

ومثله قوله ﷻ: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة: ٧- ٨]؛ فلا يجوز أن يُجازَى على قليل الطاعة المنطوق به ولا يُجازَى على كثيرها؛ للسكوت عنه، ولا أن يُعاقَبَ على قليل المعصية ولا يعاقب على كثيرها؛ للعلة نفسها!

ومثله أيضًا قوله ﷻ: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا) [آل عمران: ٧٥]؛ فالأمين على القنطار هو على الدينار آمَنُ، والخائن في الدينار هو في القنطار أَخْوَنُ!

وقوله ﷻ: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا) [النساء: ١٠]؛ فلا يشك عاقل أن النص دالٌّ على جواز إحراق تلك الأموال أو إغراقها، وأنه آكتفى في الوعيد على ما ذكر؛ فيُعمَلُ المنطوقُ به، ويُعطَّلُ المسكوت عنه؛ إذِ الجميعُ إتلاف لتلك الأموال بغير حقٍّ!

وقوله (**صلى الله عليه وآله**): ((لا يقضين حكم بين آثنين وهو غضبان)) [الجامع الصحيح/ كتاب الأحكام (باب هل يقضي القاضي أو يُفتي وهو غضبان؟)، رقم: (٧١٥٨)، (٩/ ٦٥)، ويُنظرُ: جامع الأصول في أحاديث الرسول/ حرف القاف (الكتاب الثالث: في القضاء وما يتعلَّق به - الفصل الخامس: في آداب القاضي)، رقم: (٧٦٦٩)، (١٠/ ١٧٥)، ومشكاة المصابيح/ كتاب الإمارة والقضاء (باب العمل في القضاء والخوف منه)، رقم: (٣٧٣١)، (٢/ ١١٠٢)، وجامع الأحاديث/ حرف الكاف من قسم الأقوال (المُحلَّى من الكاف)، رقم: (١٧٥٤٩)، (١٧/ ٥٣)، وكنز العمال/ حرف الحاء (كتاب الإمارة والقضاء من قسم الأقوال - الباب الثاني: في القضاء/ الفصل الثاني: في الترغيب وآدابه)، رقم: (١٥٠٣٩)، (٦/ ١٠٣)]؛ فلا شك في أنه يدل على منع قضاء الحَكَمِ في كل حالٍ يحصل بها التشويش المانع من آستيفاء النَّظر؛ كالجوع والعطش المفرطين، والسُّرُور والحزن المفرطين، والحقد والحنق المفرطين، وكغلبة النعاس وسائر ما يتعلق به القلب تعلقًا يُشغله عن إنجاز تلك المهمة الخطيرة.

وهذا الضرب من القياس أظهر وجوه القياس وأقربُها إلى النصوص؛ لدخول فروعها في النصوص، ولكون الاستدلال فيه بالأدنى (المنطوق به) على الأعلى (المسكوت عنه)؛ فكان جليًا لذلك؛ إذْ يفهم ذلك بطريق الأولى،

ويسمى: «القياس الجلي»، و«القياس في معنى الأصل»، و«مفهوم الموافقة»، و«دلالة النص»، و«فحوى الخطاب»، ومِنْ لوازمه أنه لا يخفى على أحدٍ، ولا يلتبس على عاقلٍ، ولا نجد له مُنكرًا إلَّا متأبّيًا أو مكابرًا [يُنظرُ: الحاوي الكبير (١٦/ ١٤٤- ١٤٥)، والتلخيص في أصول الفقه (٣/ ٢٢٩)، وإيجاز البيان عن معاني القُرآن (٢/ ٤٩٨)، وزاد المسير (٣/ ١٨- ١٩)، والبحر المُحيط (٧/ ٣٦- ٣٧)، وتفسير القُرآن العظيم (٥/ ٦٤)، واللُّبابُ في عُلُوم الكِتَاب (١٢/ ٢٥٧- ٢٥٨)، وغرائب القُرآن ورغائب الفُرقان (٤/ ٣٤٠- ٣٤١)، وإرشاد العقل السَّليم (٥/ ١٦٦)، ورُوحُ المعاني (٨/ ٥٥)، والتَّحرير والتَّنوير (١٥/ ٧٠)].

٢٠- يُنظرُ: تفسير القُرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٢٣)، وبحر العُلُوم (٢/ ٣٠٧)، وغرائب القُرآن ورغائب الفُرقان (٤/ ٣٤٠)، والجواهر الحِسَان (٣/ ٤٦١)، ونظم الدُّرَر (١١/ ٤٠١- ٤٠٢)، ورُوحُ المعاني (٨/ ٥٥)، وتفسير المراغيِّ (١٥/ ٣١، و٣٤- ٣٥)، والتَّحرير والتَّنوير (١٥/ ٦٨- ٦٩)، والتَّفسير الحديث (٣/ ٣٧٨)، والتَّفسير الواضح (٢/ ٣٦٨)، والتَّفسير الوسيط، للزحيلي (٢/ ١٣٤٠).

٢١- سيِّد قطب، في ظِلَالِ القُرآن (٤/ ٢٢٢١).

٢٢- يُنظرُ: الكشَّاف (٢/ ٦٥٧- ٦٥٨)، وزاد المسير (٣/ ١٨- ١٩)، والجامع لأحكام القُرآن (١٠/ ٢٤١)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (٨/ ٤٧٢)، وتفسير الشعراوي (١٤/ ٨٤٥٦، و٨٤٦٠)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (٨/ ٣٢٦)، وصفوة التَّفاسير (٢/ ١٤٥)، وأيسرُ التَّفاسير (٣/ ١٨٧).

٢٣- يُنظرُ: مفتاح العُلُوم/ ص٢١٦، والجامع لأحكام القُرآن (١١/ ٧٦- ٧٧)، ومَدَارك التَّنزيل (٢/ ٣٢٥)، والدُّرُّ المَصُونُ (٧/ ٥٦٤)، وغرائب القُرآن ورغائب الفُرقان (٤/ ٤٦٨)، وتيسير الكريم الرَّحمن (١/ ٤٨٩)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (٨/ ٧٢٣)، وتفسير الشعراوي (١٥/ ٩٠٢٦- ٩٠٢٧)، والتَّفسير الواضح (٢/ ٤٤٤)، والتَّفسير الوسيط، للزحيلي (٢/ ١٤٦٠).

٢٤- يُنظرُ: الكشَّاف (٣/ ٤)، وزاد المسير (٣/ ١١٧)، ونظم الدُّرَر (١٢/ ١٦٨)، وإرشاد العقل السَّليم (٥/ ٢٥٣)، وفتح القدير (٣/ ٣٧٩)، ورُوحُ المعاني (٨/ ٣٨٠)، ومحاسن التَّأويل (٧/ ٨٤)، وتفسير المراغيِّ (١٦/ ٣٣- ٣٤)، وفي ظِلَالِ القُرآن (٤/ ٢٣٠٢)، وأضواء البيان (٣/ ٣٦٠)، والتَّحرير والتَّنوير (١٦/ ٦٤)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (٩/ ١٣)، والتَّفسير المُنير (١٦/ ٥٠).

٢٥- يُنظرُ: الكشَّاف (٢/ ١٩١)، والمُحرَّر

الوجيز (٢/ ٤٩٢)، والجامع لأحكام القُرآن (٧/ ٣٥٠)، وأنوار التَّنزيل وأسْرَار التَّأويل (٣/ ٤٧).

٢٦- يُنظرُ: إرشاد العقل السَّليم (٣/ ٣٠٨)، وفتح القدير (٢/ ٣١٨)، وتفسير المنار (٩/ ٤٥٣).

٢٧- يُنظرُ: نظم الدُّرَر (٨/ ٢٠٥)، وفي ظِلَالِ القُرآن (٣/ ١٤٢٠)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (٥/ ٥٥٠).

٢٨- البحر المُحيط (٥/ ٢٥٧)، ويُنظرُ: التَّفسير الوسيط، لطنطاوي (٥/ ٤٦٠)، والموسوعة القُرآنية، للإبياري (٩/ ٥٤٥).

٢٩- مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣٧)، ويُنظرُ: التَّحرير والتَّنوير (٩/ ٢٣٢)، وتفسير الشعراوي (٨/ ٤٥٣٨)، والتَّفسير الحديث (٢/ ٥٥٣).

٣٠- فتح القدير (٤/ ٣٩٦)، ويُنظرُ: الكَشْف والبيان (٨/ ١٠٤)، والكشَّاف (٣/ ٦٠٦- ٦٠٧)، ومحاسن التَّأويل (٨/ ١٦٤)، وأضواء البيان (٣/ ٦٤)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (١١/ ٨٦٨)، والتَّفسير المُنير (٢٢/ ٢٤٨- ٢٥٠)، والموسوعة القُرآنية، للإبياري (١١/ ٢٢).

٣١- البحر المديد (٤/ ٥٣٢) ويُنظرُ: الكشَّاف (٣/ ٦٠٦- ٦٠٧)، ومَدَارك التَّنزيل (٣/ ٨٣- ٨٤)، والبحر المُحيط (٩/ ٢٤)، ونظم الدُّرَر (١٦/ ٣٣)، ورُوحُ المعاني (١١/ ٣٥٧)، وتفسير المراغيِّ (٢٢/ ١٢٠)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (١١/ ٣٣٩).

٣٢- يُنظرُ: التَّحرير والتَّنوير (٢٢/ ٢٩٠)، وفي ظِلَالِ القُرآن (٥/ ٢٩٣٨)، وتيسير الكريم الرَّحمن (١/ ٦٨٧)، والتَّفسير الحديث (٣/ ١١٨).

٣٣- (كِفَاءُ الحوادث)؛ أي: مُقابلها ومُماثلها ومُساويها ونظيرها.

٣٤- يُقالُ: (عنَّ له الأمرُ)؛ بمعنى: عَرَضَ وظهر وخَطَرَ في بالِهِ بعد أنْ لم يكنْ له على بالٍ.

٣٥- يُنظرُ: الكشَّاف (١/ ٩٦- ٩٩)، ومفاتيح الغيب (٢/ ٣٤٨)، ومَدَارك التَّنزيل (١/ ٦٤)، واللُّباب في عُلُوم الكتاب (١/ ٤٢٩- ٤٣١)، ورُوحُ البيان (٥/ ٣)، وتيسير الكريم الرَّحمن (١/ ٤٥)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (١/ ٧٥).

٣٦- في ظِلَالِ القُرآن (١/ ٤٨).

٣٧- يُنظرُ: التَّفسير الحديث (٦/ ١٤٦).

٣٨- التَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (١/ ٤١)، ويُنظرُ: بحر العُلُوم (١/ ٣٤- ٣٥)، ومحاسن التَّأويل (١/ ٢٦٨)، وتفسير المنار (١/ ١٥٩)، وتفسير المراغيِّ (١/ ٦٥)، والتَّفسير الواضح (١/ ٢٤)، والتَّفسير المُنير (١/ ١٠١- ١٠٣).

٣٩- يُنظرُ: أحكام القرآن، للجَصَّاص (١/ ٣٣)، ومفاتيح الغيب (٢/ ٣٤٩)، وتفسير

القُرآن العظيم (١/ ١٩٩)، وتفسير الشعراوي (١/ ١٩٧- ١٩٨)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (١/ ٧٤)، والتَّفسير المُنير (١/ ٩٩).

٤٠- يُنظرُ: مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٢٨- ٢٢٩)، ومحاسن التَّأويل (٨/ ١٦٣)، والتَّحرير والتَّنوير (٢٢/ ٢٨٣)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (١١/ ٨٦٤)، وتفسير الشعراوي (٤/ ٢٣٠٩- ٢٣١٠)، و(٥/ ٢٦٦٥)، و(١٤/ ٨٦٨٣- ٨٦٨٤)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (١١/ ٣٣٦)، والتَّفسير الواضح (٣/ ١٦٠).

٤١- يُنظرُ: بحر العُلُوم (٣/ ٤٩٢)، ورُوحُ المعاني (١٥/ ٦٠)، ومحاسن التَّأويل (٩/ ٣١٤)، وفي ظِلَالِ القُرآن (٦/ ٣٦٨٩)، والتَّحرير والتَّنوير (٢٩/ ١٤٥- ١٤٧)، والتَّفسير المُنير (٢٩/ ١٠٥- ١٠٦).

٤٢- يُنظرُ: البحر المحيط (١٠/ ٢٦٦)، وأضواء البيان (٨/ ٢٦٢)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (١٥/ ١١٥١)، والتَّفسير الواضح (٣/ ٧٤٠)، والتَّفسير الوسيط، للزحيلي (٣/ ٢٧٣٠).

٤٣- يُنظرُ: معاني القرآن وإعرابه (٥/ ٢٩٧)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (١٦/ ١٤٨٨- ١٤٨٩)، وتفسير الشعراوي (١٤/ ٨٥٣٠- ٨٥٣١)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (١٥/ ٣١٧، و٣٢٠)، وأيسرُ التَّفاسير (٥/ ٥٣٣).

٤٤- يُنظرُ: الجامع لأحكام القُرآن (١٩/ ٢٥١)، والبحر المُحيط (١٠/ ٤٢٦)، وتفسير الشعراوي (٧/ ٣٩٩٤- ٣٩٩٥)، و(١٧/ ١٠٦٦٧)، والتَّفسير المُنير (٣٠/ ١١٢، و١١٥- ١١٦).

٤٥- يُنظرُ: نظم الدُّرَر (٢١/ ٣١٢)، ورُوحُ المعاني (١٥/ ٢٧٦)، وتفسير المراغيِّ (٣٠/ ٧٢- ٧٣)، وأضواء البيان (٨/ ٤٥٤)، وتيسير الكريم الرَّحمن (١/ ٩١٥)، والتَّفسير الوسيط، للزحيلي (٣/ ٢٨٣٨- ٢٨٣٩).

٤٦- يُنظرُ: التَّفسير الوسيط، لطنطاوي (٩/ ٢٥٢)، والتَّفسير الواضح (٢/ ٥٥٧).

٤٧- يُنظرُ: الصِّحَاح (١/ ٢٦٨)، وبحر العُلُوم (٢/ ٤٢٨)، والجواهر الحِسَان (٤/ ٨٨)، ورُوحُ المعاني (٩/ ٥٢)، والتَّحرير والتَّنوير (١٧/ ٧٩- ٨٠)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (٩/ ٩٠٦).

٤٨- يُنظرُ: الكشَّاف (٣/ ١١٩)، ومفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٨)، والجامع لأحكام القُرآن (١١/ ٢٩٣)، واللُّباب في عُلُوم الكتاب (١٣/ ٥٠٩)، وإرشاد العقل السَّليم (٦/ ٧٠).

٤٩- يُنظرُ: البحر المُحيط (٧/ ٤٣٥)، وغرائب القُرآن ورغائب الفُرقان (٥/ ٢٣)، وفتح القدير (٣/ ٤٨٤)، ومحاسن التَّأويل (٧/ ١٩٨)، وفي ظِلَالِ القُرآن (٤/ ٢٣٨١)،

وتيسير الكريم الرَّحمن (١/ ٥٢٤)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (٩/ ٢١٦).

٥٠- يُنظرُ: لطائفُ الإشارات (٢/ ٥٠٤)، ومفتاحُ العُلُوم/ ص١٩٣، والتَّفسير الحديث (٥/ ٢٧٠)، وتفسير الشعراوي (١٥/ ٩٥٥٢).

٥١- النُّكت والعُيُون (٤/ ٤٥٥)، ويُنظرُ: تفسير القرآن، للسمعاني (٤/ ٣٣٩)، والمُحرَّر الوجيز (٤/ ٤٢٤)، والدُّرُّ المَصُونُ (٩/ ١٩٨)، واللُّباب في عُلُوم الكتاب (١٦/ ٨١)، وفتح القدير (٤/ ٣٨٢)، ورُوحُ المعاني (١١/ ٣٢٧).

٥٢- يُنظرُ: رُوحُ المعاني (١١/ ٣٢٧)، وتفسير المراغيِّ (٢٢/ ٩٥- ٩٦)، والتَّحرير والتَّنوير (٢٢/ ٢٢٩)، وفي ظِلَالِ القُرآن (٥/ ٢٩١٤)، وتيسير الكريم الرَّحمن (١/ ٦٨٢)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (١١/ ٨٣٦)، وأيسرُ التَّفاسير (٤/ ٣٣١)، والموسوعة القُرآنية، للإبياري (١١/ ١٦).

٥٣- يُنظرُ: زاد المسير (٣/ ٥٠٢)، واللُّباب في عُلُوم الكتاب (١٦/ ٨١)، وغرائب القُرآن ورغائب الفُرقان (٥/ ٥٠٠).

٥٤- يُنظرُ: مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٧٩)، والجامع لأحكام القُرآن (١٠/ ١٩٨)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (٧/ ٣٨٤- ٣٨٥)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (٨/ ٢٤٧)، والتَّفسير الوسيط، للزحيلي (٢/ ١٣١٠- ١٣١٢)، والتَّفسير المُنير (١٤/ ٢٥٠)، وأيسرُ التَّفاسير (٣/ ١٦١).

٥٥- يُنظرُ: معالم التَّنزيل (٥/ ٤٩)، وأنوار التَّنزيل وأسْرَار التَّأويل (٣/ ٢٤٢)، ومَدَارك التَّنزيل (٢/ ٢٣٧)، والبحر المُحيط (٦/ ٦٠٣)، واللُّباب في عُلُوم الكتاب (١٢/ ١٧٣)، وإرشاد العقل السَّليم (٥/ ١٤٥)، والتَّحرير والتَّنوير (١٤/ ٣٠٦).

٥٦- مسند الإمام أحمد/ رقم: (٧٩٢٦)، (١٣/ ٣٠٣)، ومسند البزَّار/ رقم: (٨٤٤٤)، (١٥/ ١٣٥)، وجامع الأحاديث/ حرف اللَّام من قسم الأقوال (المُحلَّى من اللَّام)، رقم: (١٨٧١٦)، (١٨/ ٢)، وكنز العمال/ الكتاب الأول من حرف الهمزة: في الإيمان والإسلام من قسم الأقوال، الباب الأول: في تعريفهما حقيقة ومجازًا ومُتعلِّقاتٌ أُخر (فصلٌ في صفات المنافقين)، رقم: (٨٦٢)، (١/ ١٧٠).

٥٧- يُنظرُ: مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٥)، والجامع لأحكام القُرآن (٦/ ٤٢٧)، وأنوار التَّنزيل وأسْرَار التَّأويل (٢/ ١٦٢)، والدُّرُّ المَصُونُ (٤/ ٦٣٥)، واللُّباب في عُلُوم الكتاب (٨/ ١٥١).

٥٨- يُنظرُ: مجاز القُرآن (١/ ١٩٢)، وتفسير غريب القُرآن، لابن قتيبة/ ص١٥٤، وجامع البيان (١١/ ٤٦٤)، ومعاني القُرآن، للنَّحَّاس

(٢/ ٤٢٥)، وتفسير القرآن (٢/ ١٠٤)، ومعالم التَّنزيل (٣/ ١٤٤)، وإيجاز البيان عن معاني القُرآن (١/ ٢٩٥)، وزاد المسير (٢/ ٢٩)، ومفاتيح الغيب (١٢/ ٢٣٧).

٥٩- نظم الدُّرَر (٧/ ١١٦).

٦٠- يُنظرُ: الهِدَاية إلى بُلُوغ النِّهاية (٣/ ٢٠٢٥)، ولُبابُ التَّأويل (٢/ ١١٣)، ورُوحُ البيان (٣/ ٣٠)، وفتح القدير (٢/ ١٣٣)، وتفسير المنار (٧/ ٣٤٨)، وفي ظِلَالِ القُرآن (٢/ ١٠٩٠- ١٠٩١)، والتَّفسير الوسيط، لطنطاوي (٥/ ٧٥)، وأيسرُ التَّفاسير (٢/ ٥٩).

٦١- يُنظرُ: معالم التَّنزيل (٣/ ١٤٤)، ومفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٥)، والجامع لأحكام القُرآن (٦/ ٤٢٧)، والبحر المُحيط (٤/ ٥١٥)، والتَّحرير والتَّنوير (٧/ ٢٣١- ٢٣٢).

٦٢- يُنظرُ: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجَّاج (٢/ ٢٤٩)، وغرائب القُرآن ورغائب الفُرقان (٣/ ٧٩- ٨٠)، والجواهر الحِسَان (٢/ ٤٦٥)، ورُوحُ البيان (٣/ ٣٠)، والتفسير المظهريُّ (٣/ ٢٣٦- ٢٣٧)، والتَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن (٤/ ١٨١- ١٨٢)، والتَّفسير المُنير (٧/ ٢٠٢).

المصادر والمراجع:

القُرآنُ الكريمُ.

١- الإحكام في أُصُول الأحكام، سيف الدِّين أبو الحَسَن علي بنُ أبي مُحَمَّد بن سالم بن محمد الثَّعلبي، الآمديُّ، البغدادي، الحنبلي (ت٦٣١هـ)، تحقيق: د.سيِّد الجميلي/ دار الكتاب العربي (بيروت)، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بنُ علي الجصَّاص، الرَّازي (ت٣٧٠هـ)، ضبط نصَّه وخرَّج آياته: عبدالسَّلام محمد شاهين/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣- إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الشَّهير بـ(تفسير أبي السُّعُود)، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُصطفى العِمَادِيُّ (ت٩٨٢هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط٣، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٤- أضواء البيان في إيضاح القُرآن بالقُرآن، الشَّيخ الدُّكتور مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار الجنكيُّ، الشِّنقيطيُّ، الموريتانيُّ (ت١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، دار الفكر (بيروت)، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، الشَّهير بـ(تفسير البيضاوي)، الإمام أبو الخير ناصر الدين عبدالله بن عُمر بن مُحَمَّد بن عليٍّ الشيرازيُّ، القاضي، البيضاويُّ (ت٦٨٥، أو٦٩١هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٦- إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبو القاسم بيان الحق نجم الدين محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري، الغزنوي (ت٥٥٠ أو٥٥٣هـ)، تحقيق: د.حنيف بن حسن القاسمي/ دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٧- أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، الشَّيخ جابر بن مُوسى بن عبدالقادر بن جابر أبو بكر الجزائريُّ/ مكتبة العُلُوم والحكم (المدينة المنورة)، ط٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٨- بحر العُلُوم، أبو اللَّيث نصر بن مُحَمَّد بن أحمد السَّمرقنديُّ (ت٣٧٥هـ)، الدار المصرية (بيروت)، ط١/ ١٩٧١م.

٩- البحر المُحيط في التَّفسير، أبو عبدالله أثير الدين مُحَمَّد بن يوسف بن حيَّانَ الغِرْناطيُّ، الشَّافعيُّ، النَّحْويُّ، الشَّهير بـ(أبي حيَّانَ الأندلُسيِّ)، (ت٧٤٥هـ)، مُراجعة: صِدْقي مُحَمَّد جميل/ دار الفكر (بيروت)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٠- البحر المديد في تفسير القُرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد بن المهديِّ بن عجيبة الحسنيُّ، الفاسيُّ، المغربيُّ (ت١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م)، تحقيق: أحمد عبدالله القرشيِّ

رسلان/ القاهرة، (ب. ت).
١١- بستان الأحبار مختصر نيل الأوطار، فيصل بن عبدالعزيز بن فيصل بن حمد المبارك الحريمليُّ، النَّجديُّ (ت١٣٧٦هـ)، دار إشبيليا (الرياض)، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
١٢- التَّحرير والتنوير، الموسوم بـ(تحرير المعنى السَّديد وتنوير العقل الجديد)، الشَّيخ مُحَمَّد الطَّاهر بن عَاشُور المالكيُّ، التُّونُسيُّ (ت١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، الدار التُّونُسية للنَّشر (تُونُس)، ط٣١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٤م.
١٣- التَّسهيل لعُلُوم التنزيل، أبو القاسم مُحَمَّد بنُ أحمد بن مُحَمَّد بن عبدالله بن جُزَيٍّ الكَلْبي (ت٧٤١هـ)، دار الكتاب العربي (بيروت)، ط٤، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
١٤- التَّفسير الحديث، مُحَمَّد عِزَّة دَرْوَزَة، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة)، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
١٥- تفسير الشعراوي (الخواطر)، الشَّيخ مُحَمَّد مُتَوَلِّي الشَّعراويُّ/ مطابع أخبار اليوم – قِطَاع الثقافة (ب. ت).
١٦- تفسير غريب القرآن، أبو محمد عبدالله بنُ مُسلم بن قُتيبة الدِّينَوَري (ت٢٧٦هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
١٧- تفسير القرآن، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار بن أحمد المروزي، السمعاني، التميمي، الحنفي، ثم الشافعي (ت٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم/ دار الوطن (الرياض)، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
١٨- تفسير القُرآن الحكيم، الشَّهير بـ(تفسير المنار)، السَّيِّد مُحَمَّد رشيد بن عليٍّ رِضَا بن مُحَمَّد شمس الدين البغداديُّ الأصل، الحسينيُّ النَّسَب (ت١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، خرَّج آياته وأحاديثه، وشرح غريبه: إبراهيم شمس الدِّين/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
١٩- تفسير القُرآن العظيم، الشَّهير بـ(تفسير ابن كثير)، أبو الفِدَاء عِمَاد الدِّين إسماعيل بن عُمر بن كثيرٍ القُرشيُّ، البُصرويُّ، الدِّمشقيُّ (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: مُحَمَّد حسين شمس الدِّين/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٢٠- تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مِهْران التميميُّ، الحنظليُّ، الرَّازيُّ (ت٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيِّب/ مكتبة نزار مصطفى الباز (مكَّة المكرَّمة)، ط٣، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٢١- التَّفسير القُرآنيُّ للقُرآن، الأُستاذ عبدالكريم محمود يُونُس الخطيب المصريُّ (ت١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م)، دار الفكر العربي

(القاهرة)، (ب. ت).
٢٢- التفسير القيِّم، شمس الدِّين أبو عبدالله محمد بن أبي أيوب الزُّرْعي، الدِّمشقي، الشهير بـ«ابن قيِّم الجوزية»، أو «ابن القيِّم» (ت٧٥١هـ)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف: الشيخ إبراهيم رمضان/ دار ومكتبة الهلال (بَيْروت)، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
٢٣- تفسير المراغيِّ، الشَّيخ أحمد مُصطفى المراغيُّ/ شركة ومكتبة ومطبعة مُصطفى البابيِّ الحلبيِّ وأولاده (القاهرة)، ط٢، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.
٢٤- التَّفسير المظهريُّ، مُحَمَّد ثناء الله المظهَرِيُّ/ تحقيق: غلام نبي التُّونُسيُّ/ مكتبة الرشدية (باكستان)، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٢٥- التَّفسير المُنير في العقيدة والشَّريعة والمنهج، أ.د.وهبة الزُّحَيليُّ/ دار الفكر (دمشق)، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٢٦- التَّفسير الواضح، د.مُحَمَّد محمود حجازي/ دار الجيل الجديد (بيروت)، ط١٠، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
٢٧- التَّفسير الوسيط، الأُستاذ الشَّيخ مُحَمَّد سيِّد طنطاوي/ دار الشروق (القاهرة)، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٢٨- التَّفسير الوسيط، أ.د.وهبة الزُّحَيْليُّ/ دار الفكر المعاصر (بيروت)، دار الفكر (دمشق)، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٢٩- التلخيص في أصول الفقه، أبو المعالي ركن الدين عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني، الملقب بـ(إمام الحرمين)، (ت٤٧٨هـ)، تحقيق: عبدالله جولم النبالي، وبشير أحمد العمري/ دار البشائر الإسلامية (بيروت)، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
٣٠- تيسير التَّفسير المُنتخب، إبراهيم القَطَّان/ موقع التَّفاسير على شبكة الإنترنت، (ب. ت).
٣١- تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان، الشَّيخ عبدالرَّحمن بن ناصر السَّعديُّ (ت١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، تقديم: الشَّيخ عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل، والشَّيخ مُحَمَّد بن صالح العُثيمين/ تحقيق: عبدالرحمن بن مُعلَّا اللُّويحق/ مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٣٢- جامع الأحاديث، أبو الفضل جلال الدِّين عبدالرَّحمن بنُ أبي بكر السُّيوطي، الطولوني، الشَّافعي، المصري (ت٩١١هـ)، مكتبة التراث الإسلامي (القاهرة)، (ب. ت).
٣٣- جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني، ابن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط/ مكتبة الحلواني، ومطبعة الملَّاح، ومكتبة دار البيان (من دون مكان نشر)، ط١،

١٣٨٩ - ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٩ - ١٩٧٢م.

٣٤- جامع البيان عن تأويل آي القُرآن، الشَّهير بـ(تفسير الطَّبريِّ)، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن غالب الطَّبريُّ (٣١٠هـ)، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم/ دار سويد (بيروت)، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٢م.

٣٥- الجامع لأحكام القُرآن، الشَّهير بـ(تفسير القُرطُبيِّ)، أبو عبدالله شمس الدِّين مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريُّ، الخزرجيُّ، الأندلُسيُّ، القُرطُبيُّ، المالكيُّ (ت٦٧١هـ)، دار الكتاب العربي (القاهرة)، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٣٦- الجواهر الحِسَان في تفسير القُرآن، الشَّهير بـ(تفسير الثَّعالبيِّ)، أبو زيد عبدالرَّحمن بن مُحَمَّد بن مخلوف الثَّعالبيُّ، المالكيُّ، الأشعريُّ، الجزائريُّ (ت٨٧٥هـ)، مؤسسة الأعلمي، (بيروت)، (ب. ت).

٣٧- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشَّافعي، وهو شرح مُختصر المُزني، أبو الحَسَن علي بنُ مُحَمَّد بن حبيب البصري، البغدادي، الشهير بـ«المَاوَرْدي» (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٣٨- حِلْية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهانيُّ (ت٤٣٠هـ)، مكتبة الخانكي، ومطبعة السعادة (القاهرة)، ١٩٣٧م.

٣٩- الحيوان: أبو عثمان عَمْرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، البصري، المعتزلي، الشهير بـ«الجاحظ» (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبدالسَّلام محمد هارون/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي (القاهرة)، ط١، ١٩٣٨م.

٤٠- الدُّرُّ المصون في عُلُوم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدِّين أحمد بنُ يُوسُف بن عبدالله الدَّائم، الشهير بـ«السَّمين الحَلَبي» (ت٧٥٦هـ)، تحقيق وتعليق: د.جاد مخلوف جاد، د.زكريا عبدالمجيد النُّوتي، علي محمد عوض، عادل أحمد عبدالموجود/ تقديم وتقريظ: د.أحمد محمد صيرة/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٤١- رُوح البيان، المولى أبو الفِدَاء إسماعيل حقِّي بن مُصطفى الإستانبوليُّ، الحنفيُّ، الخلوتيُّ (ت١١٢٧هـ)، دار إحياء التُّراث العربي (بيروت)، (ب. ت).

٤٢- رُوح المعاني في تفسير القُرآن العظيم والسَّبع المثاني، الشهير بـ(تفسير الآلُوسيِّ)، أبو الثناء عبدالله شهاب الدِّين محمود بن عبدالله الآلُوسيُّ، البغداديُّ، الحسينيُّ، الشَّافعيُّ (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التُّراث العربي (بيروت)، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٤٣- زاد المسير، جمال الدين أبو الفرج عبدالرَّحمن بن أبي الحسن علي بن مُحَمَّد القرشيُّ، التَّميميُّ، الجوزيُّ، الصِّدِّيقيُّ، البغداديُّ، الحنبليُّ، المعروف بـ(ابن الجوزيِّ)، (ت٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي (دمشق)، ط١، ١٣٨٤هـ.

٤٤- السِّراج المُنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربِّنا الحكيم الخبير، شمس الدِّين مُحَمَّد بنُ أحمد الخطيب الشِّربيني، الشَّافعي (ت٩٧٧هـ)، مؤسَّسة الرِّسالة (بيروت)، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٤٥- الصِّحَاح «تاج اللُّغة وصِحَاح العربية»، أبو نصر إسماعيل بنُ حمَّاد الجَوْهري، الفارابي (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: الأستاذ أحمد عبدالغفور عطَّار/ دار العلم للملايين (بيروت)، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤٦- صحيح ابن حِبَّان بترتيب ابن بَلْبان، أبو حاتم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن جعفر بن حِبَّان بن أحمد بن معاذ التَّميميُّ، البُستيُّ (ت٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير أبي الحسن علاء الدين عليِّ بن بَلْبان بن عبدالله بن عبدالأمير الفارسيِّ، المصريِّ، الحنفيِّ، المنعوت بـ(الأمير)، (ت٧٣٩هـ)، تحقيق: شُعيب الأرناؤوط/ مؤسسة الرِّسالة (بيروت)، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٤٧- صحيح البُخاريِّ (الجامع الصَّحيح)، أبو عبدالله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البُخاريُّ، الجُعفيُّ (ت٢٥٦هـ)، تحقيق: مُصطفى ديب البغا (أُستاذ الحديث وعُلُومه في كلية الشَّريعة - جامعة دمشق)، دار ابن كثير (دمشق، بيروت)، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤٨- صفوة التَّفاسير، مُحَمَّد علي الصَّابونيُّ (الأُستاذ بكلية الشَّريعة والدِّراسات الإسلامية في جامعة الملك عبدالعزيز بمكَّة المكرَّمة)، إشراف: مركز البُحُوث والدِّراسات في دار الفكر (بيروت)، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٤٩- غرائب القُرآن ورغائب الفُرقان، نظام الدِّين الحسن بن مُحَمَّد بن الحسين القُمِّيُّ، النَّيسابوريُّ (تُوفِّي بعد سنة ٨٥٠هـ)، مؤسسة الأعلميِّ، (بيروت)، (ب. ت).

٥٠- غُرر الخصائص الواضحة وعُرر النَّقائض الفاضحة: أبو إسحاق برهان الدِّين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بـ«الوطواط» (ت٧١٨هـ)، ضبط وتصحيح وتعليق وفهرسة: إبراهيم شمس الدين/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٥١- فتح القدير الجامع بين فنَّي الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير، الشَّهير بـ(تفسير الشَّوكانيِّ)، مُحَمَّد بن عليِّ بن مُحَمَّد بن عبدالله الشَّوكانيُّ، اليمنيُّ (ت١٢٥٠هـ)، مطبعة مُصطفى البابيِّ الحلبيِّ (القاهرة)، ط٢، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

٥٢- في ظلال القُرآن، الإمام الشَّهيد سيِّد قُطُب إبراهيم حسين الشَّاذليُّ (ت١٣٨٥هـ/

١٩٦٦م)، دار الشُّرُوق (بيروت، القاهرة)، ط١٧، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٥٣- الكامل في اللُّغة والأدب: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبدالأكبر الثُّمالي، الأزدي، المعروف بـ«المُبرِّد» (ت٢٨٦هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم/ دار الفكر العربي (القاهرة)، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥٤- الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعُيُونُ الأقاويل في وُجُوه التَّأويل، الشَّهير بـ(تفسير الزَّمخشريِّ)، أبو القاسم جار الله محمود بن عُمر بن أحمد الزَّمخشريُّ، الخوارزميُّ، المعتزليُّ (ت٥٣٨هـ)، دار المعرفة (بيروت)، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٥٥- الكشف والبيان في تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بنُ مُحَمَّد بن إبراهيم الثَّعلبي، النَّيْسابوري (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور، مُراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير السَّاعدي/ دار إحياء التراث العربي (بيروت)، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٥٦- كنز العُمَّال في سُنن الأقوال والأفعال، علاء الدِّين بن عبدالملك المتَّقي الهنديُّ (ت٩٧٥هـ)، مؤسَّسة الرِّسالة (بيروت)، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٥٧- لُبابُ التَّأويل في معاني التَّنزيل، الشَّهير بـ(تفسير الخازن)، علاء الدين علي بن مُحَمَّد بن إبراهيم الشِّيحيُّ، البغداديُّ، الصُّوفيُّ، المعروف بـ(الخازن)، (ت٧٤١هـ)، دار المعرفة (بيروت)، (ب. ت).

٥٨- اللُّباب في عُلُوم الكتاب، أبو حفص سِرَاج الدين عُمر بن عليِّ بن عادلٍ الحنبليُّ، الدِّمشقيُّ، النُّعمانيُّ، المعروف بـ(ابن عادلٍ)، (تُوفِّي قبل سنة ٧٧٥هـ أو بعد سنة ٨٨٠هـ على خلاف بين أصحاب التراجم)، تحقيق وتعليق: د.علي مُحَمَّد مُعوَّض، وآخرين/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٥٩- لطائف الإشارات، الإمام زين الإسلام أبو القاسم عبدالكريم بن هَوَازِن بن عبدالملك بن طلحة القُشيريُّ، النَّيسابوريُّ، الشَّافعيُّ، المحدِّث الصُّوفيُّ (ت٤٦٥هـ)، علَّق عليه: عبداللَّطيف حسن عبدالرَّحمن/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٦٠- مجاز القرآن، الحافظ أبو عُبيدة مَعْمَر بنُ المُثنَّى المعتزليُّ (ت٢٠٨هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.

٦١- محاسن التَّأويل، الشَّهير بـ(تفسير القاسميِّ)، الإمام عَلَّامة الشَّام مُحَمَّد جمال الدِّين بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلَّاق (ت١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، تحقيق: الأُستاذ مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي/ دار إحياء الكُتُب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركائه)، (القاهرة)، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٦٢- المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،

الشَّهير بـ(تفسير ابن عطية)، الإمام القاضي أبو مُحَمَّد عبدالحقِّ بن غالب بن عبدالرَّحمن بن عطية الأندلُسيُّ، المغربيُّ، الغرناطيُّ، المحاربيُّ (ت٥٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاريِّ، وعبدالسَّلام عبدالشَّافي مُحَمَّد/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٦٣- مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل، الشَّهير بـ(تفسير النَّسَفيِّ)، أبو البركات حافظ الدِّين عبدالله بن أحمد بن محمود الحنفيُّ، النَّسَفيُّ (ت٧١٠هـ)، دار الكتاب العربي (بيروت)، (ب. ت).

٦٤- مُسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبدالله أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل الشيبانيُّ، الوائليُّ (ت٢٤١هـ)، المكتب الإسلاميُّ (بيروت)، ط٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٦٥- مُسند البزَّار (البحر الزَّخَّار)، الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن عَمْرو بن عبدالخالق بن خَلَّاد بن عُبيد الله البصريُّ، العتكيُّ، المعروف بـ(البزَّار)، (ت٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرَّحمن زين الله، وعادل سعد، وصبري عبدالخالق الشَّافعيِّ/ مكتبة العُلُوم والحكم (المدينة المنورة)، ط١، ١٩٨٨- ٢٠٠٩م.

٦٦- مِشْكاة المصابيح، أبو عبدالله وليُّ الدين مُحَمَّد بن عبدالله الخطيب العُمريُّ، التبريزي (ت٧٤١هـ)، تحقيق: الشَّيخ مُحَمَّد ناصر الدِّين الألبانيِّ/ المكتب الإسلامي (بيروت)، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٦٧- معالم التَّنزيل، الشَّهير بـ(تفسير البغويِّ)، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد الشَّافعيُّ، المعروف بـ(الفرَّاء البغويِّ)، (ت٥١٠هـ)، تحقيق وتخريج وضبط: مُحَمَّد عبدالله النمر، وعُثمان جُمعة ضميرية، وسليمان مُسلم الحرش/ دار طيبة (الرياض)، ط٤، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٦٨- معاني القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بنُ مُحَمَّد بنُ إسماعيل المُرادي، المصري، النَّحَّاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصَّابوني/ جامعة أُم القُرى (مكَّة المُكرَّمة)، ط١، ١٤٠٩هـ.

٦٩- معاني القُرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن مُحَمَّد بنُ السَّرِيِّ بن سَهْل الزَّجَّاج، النَّحوي، البغدادي (ت٣١١هـ)، شرح وتحقيق: د.عبدالجليل عبدُه شلبي/ دار المعارف (القاهرة)، ط١/ ١٩٧٨م.

٧٠- المُعجم الكبير، أبو القاسم سُليمان بن أحمد بن مطير بن أيُّوب الطَّبرانيُّ، اللَّخميُّ، الشَّاميُّ، الشَّافعيُّ (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد إسماعيل السَّلفيُّ/ مكتبة العُلُوم والحكم (الموصل)، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٧١- مفاتيح الغيب، الشَّهير بـ(تفسير الفخر الرَّازيِّ)، أو(التَّفسير الكبير)، أبو عبدالله فخر الدين ابن الخطيب بن مُحَمَّد بن عُمر

ابن التَّيميِّ، البكريُّ، الملقَّب بـ(فخر الدِّين الرَّازيُّ)، (ت٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٧٢- مفتاح العُلُوم، أبو يعقوب سراج الدِّين يُوسُف بنُ أبي بكر بن مُحَمَّد بن علي السَّكَّاكي، الخوارزمي، الحنفي (ت٦٢٦هـ)، ضبط وشرح: نعيم زرزور/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٧٣- الموسوعة القُرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الإبياريُّ (ت١٤١٤هـ/ ١٩٩٥م)، مؤسَّسة سِجِلِّ العرب، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٧٤- نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور، الإمام بُرهان الدِّين أبو الحسين إبراهيم بن عُمَر بن عليٍّ بن أبي بكر البِقَاعِيُّ (ت٨٨٥هـ)، مكتبة ابن تيمية (القاهرة)، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٧٥- النُّكت والعُيُون، أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن حبيب البصريُّ، البغداديُّ، الشَّهير بـ(الماوَرْديِّ)، (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: خضر مُحَمَّد خضر/ مطابع مقهوي (الكويت)، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٧٦- الهداية إلى بُلُوغ النهاية في علم معاني القُرآن وتفسيره وأحكامه وجُمل من فُنُون عُلُومه، أبو مُحَمَّد مكِّي بن أبي طالب حَمُّوش بن مُحَمَّد بن مُختار القيسيُّ، القيروانيُّ، الأندلُسيُّ، القُرطُبيُّ، المالكيُّ (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدِّراسات العليا والبحث العلميِّ – جامعة الشَّارقة، إشراف: أ.د.الشَّاهد البُوشيخيِّ/ مجموعة بحوث الكتاب والسُّنَّة (كلية الشَّريعة والدِّراسات الإسلامية – جامعة الشَّارقة)، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٧٧- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحديُّ، النيسابوريُّ، الشافعيُّ (ت٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، والدكتور أحمد محمد صيرة، والدكتور أحمد عبدالغني الجمل، والدكتور عبدالرحمن عويس، قدَّم له وقرَّظه: أ.د.عبدالحي الفرماوي (الأستاذ في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر – القاهرة)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.